

الكتاب العربي السعودي ٣٨

الدكتور غازي عبد الرحمن القصيبي

عن هذا .. وذاك .

تهامة
TIHAMA

الكتاب العربي السعودي ٣٨

الدكتور غازي عبدالرحمن القصيبي



الطبعة الأولى ١٣٩٨ هـ ١٩٧٨
الطبعة الثانية ١٤٠١ هـ ١٩٨١

بسم الله الرحمن الرحيم

الناشر
تهامة
جدة - المملكة العربية السعودية
ص.ب ٥٤٥٥ - هاتف ٦٤٤٤٤٤٤

إهداء

إلى الذين يختلفون معي في الرأي ..
عسى أن أتعلم منهم أشياء ..
ويتعلموا مني شيئًا ..

المؤلف

عن الوحدة العربية

تحتل الوحدة العربية مكاناً اثيراً في قلب كل عربي وأحلامه من المحيط الى الخليج. ذلك انها تمثل جوع القطع المشتتة الى الالتحام في كيان واحد، وظمأ الحدود الكثيرة الى الاقتراب من بعضها البعض، وشهوة الأرض الضعيفة الفقيرة المتخلفة الى أن تصبح أرضاً غنية متطورة. من هنا احتلت الوحدة العربية مكاناً رئيسياً في الفكر السياسي العربي وفي الكفاح السياسي العربي وظلت موضوع اليوم وموضوع الساعة، كل يوم وكل ساعة في الحاضر والمستقبل.

على اننا اذا كنا قد تكلمنا عن الوحدة كثيراً وغنينا لها طويلاً فلا بد أن نعترف اننا لا نزال بعد ثلاثين سنة من استقلال معظم الدول العربية بعيدين كل البعد عن الهدف المنشود. لا تزال لكل دولة ودويلة عربية حدودها وعلمها ونظامها السياسي والاقتصادي المتميز ومناهج تعليمها الخاصة وقوميتها المحلية. لا يزال التنسيق هو الاستثناء والمنافسة هي القاعدة. لا تزال الخلافات الحادة موجودة تهدأ حيناً ثم تنفجر على هيئة قفل الحدود بين دولة عربية «وشقيقتها» أو على هيئة حملة اذاعية مسعورة بين دولة عربية «وجاراتها العزيزة» أو على هيئة صدام مسلح بين دولة عربية «وشريكتها في التاريخ والآمال والمصير المشترك».

معنى هذا، بصراحة وببساطة، اننا لم نستطع أن نحول الوحدة من أمنية في عالم الأحلام الى هدف عملي ببرامج محددة. ومعنى هذا اننا في غمرة حماسنا للوحدة وقعنا في منزلقات خطيرة على مستوى الفكر السياسي، أولا، وعلى مستوى العمل السياسي ثانيا.

ما الذي حدث؟

كان أول خطأ وقع فيه الفكر السياسي العربي هو التفاؤل الساذج المفرط حول امكانيات قيام الوحدة العربية الشاملة. كان منطلق الفكر السياسي على النحو التالي:

الوحدة العربية هدف حيوي.

فهي اذن ممكنة.

وهي ممكنة.

فهي اذن ممكنة اليوم.

ولا نحتاج الى الكثير من التأمل لندرك ان الأمور قد تجري على هذا النحو في صفحات الكتب والمجلات ولكنها ـ للأسف ـ لا تجري على هذا النوع في الواقع السياسي. لا أستطيع مهما كانت رغبتي ان أزعم ان القضاء على السرطان هدف حيوي فهو اذن هدف ممكن، وهو ممكن فهو اذن ممكن اليوم. ولا أستطيع، مهما كان حماسي ان ادعي أن نزع الأسلحة الذرية هدف حيوي فهو اذن ممكن، وهو ممكن فهو اذن ممكن اليوم.

لا شك ان الوحدة العربية هدف حيوي ولكن ذلك لا يحولها تلقائيا الى هدف ممكن. بل أذهب أبعد من ذلك فأقول: اننا ما لم نكن على مستوى المسؤولية التاريخية فان الوحدة لن تتحول الى هدف ممكن. وتحول الوحدة العربية الى هدف ممكن لا يعني بالضرورة انها ممكنة اليوم، بل أذهب أبعد من ذلك فأقول: ان اصرارنا على أن نحولها الى هدف ممكن اليوم قد ينتهي بجعلها هدفاً مستحيلاً في الغد وبعد الغد.

وكانت نتيجة افراط الفكر السياسي العربي في التفاؤل انه رفض مواجهة الحقائق وأصر على تبرير كل الوقائع بطريقة لا تناقض منطلقاته الساذجة. قديماً كان «الاستعمار» هو العائق الوحيد أمام الوحدة وذهب الاستعمار ولم تقم الوحدة

المنشودة. أصبح «عملاء الاستعمار» العقبة الكأداء في وجه الوحدة وذهب هؤلاء العملاء ولم تتحقق الوحدة المرجوة بعد هذا أصبح «الاختلاف في الايديولوجيات» سر المأساة وجاءت أنظمة ذات ايديولوجيات متشابهة ولم تنجح في تحقيق الوحدة فيما بينها. تعددت حالات الفشل وتعددت التبريرات والفكر العربي يأبى أن يواجه الحقيقة البسيطة وهي ان الوحدة ليست بالسهولة التي تصورها ويأبى ان يعترف ان اعادة تقييمه لامكانيات الوحدة أجدى وأنفع من البحث عن «المؤامرات الامبريالية» و «القوى الخفية» و «الأشباح الدولية»

وكان الخطأ الثاني الذي وقع فيه الفكر السياسي العربي انه بني نظرية الوحدة معتمداً على الأفكار المجردة والسوابق التاريخية ذات الطبيعة المختلفة وأهمل الواقع العربي اهمالاً كاد أن يكون كاملاً. تحدث الفكر السياسي العربي عن عوامل الوحدة في التاريخ العربي وتجاهل عوامل الفرقة في نفس التاريخ. تحدث عن القوى الحقيقية التي تدفع العرب في اتجاه الوحدة ونسى القوى الحقيقية التي تسد الطريق الى الوحدة. تحدث عن الدور الموحد للغة الفصحى وأهمل الدور المفرق للغة العامية. ركز على الانتماء القومي وكاد يغفل الاشارة الى الانتماء الديني. تحدث عن الهدف ولم يضع أي وقت في الحديث عن الوسائل.

وكانت نتيجة هذا الخطأ ان أصيب الفكر السياسي العربي بالصدمة تلو الصدمة وبالخيبة بعد الخيبة. كشفت التجارب ان الشعور بالوحدة لم يطمس الشعور بالانتماء الى كيانات اقليمية متعددة. وكشفت التجارب ان القوى التي تقف في طريق الوحدة ليست مصطنعة أو قادمة من الخارج ولكنها جزء من الظروف الموضوعية العربية. وكشفت التجارب ان الدين لعب دوراً بارزاً، ان لم يكن حاسماً، في كل نجاح حققته فكرة الوحدة. كشفت التجارب باختصار، ان الفكر السياسي شيد نظريات الوحدة ونماذجها ومخططاتها في فراغ لا تسكنه الا الأماني والاحلام.

وكان الخطأ الثالث الذي وقع فيه الفكر السياسي العربي هو انه تصور ان الوحدة اما أن تكون شاملة مطلقة أو لا تكون. اما أن تكون وحدة سياسية دستورية أو لا تكون شيئاً على الاطلاق. ومن هنا كانت جميع البحوث السياسية تفترض دولة واحدة وتخلص الى التساؤل هل تكون دولة «بسيطة» أو «فيدرالية» او «كنفدرالية». كان

النقاش النظري يذهب أبعد من ذلك فيتساءل ببيزنطية عقيمة عن صلاحيات الرئيس المنتظر وسلطته وعن المجلس النيابي وهل سيكون مجلساً واحداً أو مجلسين وعن الانتخابات وهل تكون على درجة أو على درجتين. وفي اثناء هذا الاهتمام بالصيغ الدستورية النظرية لم يكن هنالك أي وقت للبحوث العلمية الواقعية عن مشاكل الوحدة واحتمالاتها.

وبطبيعة الحال فان هذا التركيز على العموميات المبهمة أدى الى اهمال كل نقاش للتفاصيل والجزئيات النافعة. ما أكثر الكتب التي تتحدث عن الوحدة العربية الشاملة! وما أقل الكتب التي تعالج توحيداً لمنطقة معينة بالذات! كالمناهج والتعرفة الجمركية وقوانين السير وأنظمة الجنسية. وما أكثر الدراسات التي تطالب بوحدة فورية عسكرية! وما أقل الدراسات التي عنيت ببحث المشاكل القائمة نتيجة اختلاف الجيوش العربية! في تسليحها وتدريبها وتنظيمها دراسة منهجية وقدمت الحلول الملائمة. باختصار، أصيب الفكر السياسي «بتخمة» في النظريات العائمة الغائمة و «بفقر دم» في الخطط المحددة والدراسات المنهجية والاقتراحات العملية.

واذا كان الفكر السياسي العربي في غمرة شوقه الى الوحدة قد وقع في أخطاء في التحليل فان العمل السياسي العربي مدفوعا بحماسة الى الوحدة وقع في أخطاء في التنفيذ، كان الخطأ الأول الذي وقع فيه العمل السياسي العربي انه اعتبر الوحدة عملاً سياسياً محضاً يتخذ بقرار سياسي و ينجح، اذا لزم الأمر، بقرار سياسي، ونسى العمل السياسي العربي أن القرارت السياسية بمفردها لا تمثل بداية المشكلة ونهايتها. نسى ان اعلان الوحدة السياسية لا يعني تحقق الوحدة السياسية ونسى انه حتى لو افترضنا نجاح الوحدة السياسية نجاحاً كاملاً فان هذا بمفرده لا يضمن نجاح الوحدة الاقتصادية والوحدة الاجتماعية والوحدة الثقافية

وكانت نتيجة الخطأ الأول ان أصبحت الجماهير العربية تتوقع أن تتم الوحدة بمنتهى البساطة وأن تنتكس بالبساطة نفسها. أصبح اعلان وحدة ما لا يقابل بكثير من الاهتمام وانفصام وحدة ما يقابل بنفس اللامبالاة. كادت الوحدة تتحول الى شريط تلفزيوني يبدأ بالاتفاق و يتطور الى التراجع ثم ازالة سوء التفاهم ثم اعلان الغاء ميثاق

الوحدة ثم اعلان التمسك به ثم تجميد الوحدة ثم تحريكها وهكذا. ولذلك، وكنتيجة لطريقة العمل الارتجالية، تحولت الوحدة من عمل مضنٍ ومن تخطيط علمي ومن مسؤولية رهيبة الى نبأ صغير يتوقعه المواطنون في نشرة الصباح أو نشرة المساء.

وكان الخطأ الثاني الذي وقع فيه العمل السياسي العربي انه اعتبر تحقيق الوحدة يتوقف على المناسبات والظروف العابرة. اعتبر وجود زعيم سياسي يتمتع بشعبية واسعة مناسبة طيبة لاقامة وحدة برئاسة هذا الزعيم. كان اعلان وحدة بين دولة «أ» ودولة «ب» مناسبة لاعلان وحدة مناسبة بين دولة «جـ» ودولة «د» أصبح غضب دولة «هـ» على دولة «و» مناسبة ملائمة لكي لا تتحد مع دولة «ز» وهكذا بالنسبة الى بقية المناسبات وبقية مشاريع الوحدة.

ولا أظننا بحاجة الى التأكيد على ان الوحدة التي تقوم على مناسبة تنهار بانهيار هذه المناسبة. الوحدة القائمة على شخص رئيس تزول بوفاته واحتجابه عن المسرح السياسي. الوحدة التي تمت نتيجة المنافسة تزول بزوال هذه المنافسة. الوحدة التي تقوم نتيجة الغضب تتبخر عند الرضى. ولهذا نجد تاريخ الوحدة العربية مليئا بجثث اتفاقيات الوحدة التي انتهت بانتهاء مناسباتها وظروفها.

وكان الخطأ الثالث الذي وقع فيه العمل السياسي العربي، ولعله أخطر الأخطاء، انه لم يتصور الوحدة الا على أساس الضم، اذا أريد قيام وحدة بين «أ» و«ب» فمعنى هذا ان على إحدى الدولتين ان تنضم الى الأخرى. على احدى الدولتين، بكل بساطة ان تنسى شخصيتها وذاتيتها وظروفها المتميزة وتنصهر لا في كيان شاركت في صنعه بل في كيان الدولة الأخرى القائمة بالفعل. اذا كانت الدولة الضامة تتبع النظام الرئاسي فلا مجال أمام الدولة المضمومة سوى اتباع هذا النظام. اذا كانت الدولة الضامة تتبع مبدأ تدخل الدولة في الاقتصاد فما على المضمومة الا اتباع نفس المبدأ. اذا كانت قوانين الدولة الضامة قوانين عتيقة أكل الدهر عليها وشرب فليس أمام المضمومة سوى تطبيقها والاعجاب بها والحماس لها. وهكذا تحولت الوحدة من زواج الى تبنّ ومن صداقة الى وصاية ومن نمو تدريجي مشترك الى اندماج فوري.

وكان من نتائج هذا الخطأ أن أصبحت محاولات الوحدة توصف وكأنها معارك حربية بين منتصرين ومنهزمين. تحولت الدول العربية الى دول ضامة ودول مضمومة وبدأت الأولى تحاول الضم وأخذت الثانية تقاومه. واذا كانت الوحدة قد بدأت في أعين الدول الضامة وكأنها استجابة لدافع وحدوي حقيقي فانها بدت في أعين الدول المضمومة وكانها محاولة خارجية للقضاء على كيانها. لا غرو اذن ان تحولت الوحدة الى صراع. ولا غرابة اذا تفوقت القوى الداخلية على المحاولات الخارجية وانتهت مشاريع الوحدة بنكسات خطيرة جعلت الوحدة اعسر تحقيقا وأصعب منالا.

لقد توقع أعداء الأمة العربية بعد هذه الأخطاء والنكسات ان تفقد الجماهير العربية حماسها للوحدة وان تفقد الحكومات العربية رغبتها في تحقيق الوحدة. غير ان شيئا من هذا لم يحدث. ومازالت الجماهير العربية متحرقة الى الوحدة وما زالت الحكومات العربية تعمل دائبة في سبيل تحقيقها. ولعل هذا، في حد ذاته، أقوى دليل على آن التعلق بالوحدة جزء من لحم هذه الأمة ودمها وأعصابها وانه لا يزداد سوى قوة بمرور الأيام.

على اننا بعد هذا كله لا نستطيع أن نستمر في دوامة الخطأ والنكسة. اذا غفرنا للفكر السياسي سذاجته وللعمل السياسي اندفاعه في المرحلة الماضية فاننا لا نستطيع ان نمضي في سذاجتنا واندفاعنا الى الأبد. كانت المرحلة السابقة مرحلة تجارب ويجب أن تكون الفترة القادمة مرحلة نتائج. كنا في مرحلة النمو وآن أن ننتقل الى مرحلة النضج. اننا في السنوات القادمة نتوقع الكثير من الفكر السياسي العربي، ونتوقع الكثير الكثير من العمل السياسي العربي.

* نتوقع من الفكر السياسي العربي أولا ان يتحرر من التفاؤل ومن التشاؤم، من التسرع ومن الابطاء. نتوقع منه ان يكون متصفاً بصفة واحدة هي الواقعية وان يتمسك بها في كل الأوقات والظروف ولو ارتفعت بعض الأصوات الديماجوجية لتشتم الواقعية ولتزعم انها تعني الانهزامية أو حتى الخيانة.

* ونتوقع من الفكر السياسي ثانيا، الاّ يتحدث عن الوحدة كفكرة مجردة بل عن الوحدة العربية في اطارها التاريخي والسياسي والاجتماعي. ان الفكر المنعزل عن

الحقائق فكر عقيم لا يسمن ولا يغني من جوع وان توضيح العقبات التي تعترض سبيل الوحدة مهمة عظيمة ونبيلة لا تقل في أهميتها ونبلها عن مهمة توضيح النتائج المتوخاة من الوحدة

* ونتوقع من الفكر السياسي ثالثا ، ان يكف عن الجري وراء الصيغ الدستورية والتصورات الخيالية وان يقدم لنا من الخطط العملية ومن البرامج الزمنية ومن التفاصيل المحددة ما يحول الوحدة الى مخطط واقعي يقبل التنفيذ مرحلة فمرحلة .

* ونتوقع من العمل السياسي رابعاً، ألاّ يركز على الجانب السياسي و يتناسى بقية جوانب الوحدة. لقد كان شعار العمل السياسي في الماضي «ان هذه القضية بالغة الأهمية فلا يجب أن نتركها للخبراء» . ويجب أن يكون شعاره في المستقبل «ان هذه القضية بالغة الأهمية فيجب أن تترك للخبراء» .

* ونتوقع من العمل السياسي خامساً ان يتحرر من تأثير الظروف العابرة. الوحدة ليست رد فعل سريع على حدث عابر ولكنها مسؤولية متعاقبة. لا يهم أن نرى الوحدة أو يراها أبناؤنا أو أحفادنا ، فعمر الأمم لا يقاس بعمر الأفراد ، ولكن المهم أن نسير على الطريق الصحيح . ان أطول الطرق كثيراً ما يكون أسرعها .

* ونتوقع من العمل السياسي العربي سادساً ، أن يذهب بنظره أبعد من الكيانات القائمة فلا يفرض واحداً منها نموذجا للوحدة لا يجوز تخطيه ولا تجاوزه . نتوقع أن يدرك ان الوحدة لا تتم بتخلي كيان فوراً عن سيادته لكيان آخر ولكنها تتم بتخلي كل كيان تدريجيا عن جزء من سيادته لكيان مشترك جديد يضم مزايا الكيانين و يتلافى عيوبها . نتوقع منه ان يدرك ان الوحدة ليست عملية اندماج فوري بل عملية امتزاج تدريجي يتم مرحلة فمرحلة حتى ينتهي في الوقت المناسب بالتوحيد الكامل الذي يشمل الامة العربية بأكملها .

عن الشعر والشعراء

الشاعر في رأيي هو الانسان الذي منح موهبة التعبير عن تجار به وانفعالا ته بطر يقة فنية موسيقية معينة. وقد يكون الشاعر طبيباً أو تاجراً أو مهندساً وقد يكون ذا اتجاهات يمينية أو يسار ية وقد يكون قصيراً أو طو يلاً وقد يمر بك في الشارع فلا تلمح في مظهره ما يدل على شاعر ية أو رومانسية. الشاعر فرد كبقية الأفراد لا يميزه عن غيره سوى القدرة على التعبير الفني الشعري.

غير ان هذه الصورة الساذجة على ما يبدو لا تعجب بعض النقاد والشعراء الذين يتحدثون عن الشعر بلغة قر يبة من الألغاز، و يتحدثون عن الشاعر كما لو كان مخلوقاً خرافياً عجيباً يعيش على القمر و يضفون عليه من الأوهام والهالات ما يجعل القارىء العادي يتخيل ان الشاعر متميز تميزاً لا جدال فيه عن بقية البشر

ومن الأوهام الشائعة عن الشاعر انه أرق إحساساً وأرهف شعوراً وأعمق عاطفة عن بقية الناس. واذا كان الشعراء معذور ين اذا تحمسوا لهذا الرأي وعملوا على اذاعته ونشره فلست ادري ما عذر الآخر ين. لا يوجد ثمة دليل على ان الشاعر أرق من غيره احساساً ولعل الذين عرفوا عدداً من الشعراء، من خلال معايشتهم لا من خلال قراءة دواو ينهم، يدركون انهم كباقي البشر. عرضة لمختلف أنواع الضعف البشري. من الشعراء من يتميز بأنانية لا حدود لها، ومنهم من يتصرف بقسوة وغلظة، ومنهم من يحب المال حباً يتضاءل أمام حبه لحور يات الشعر وعذارى القصيد، ومنهم من يلهث وراء كلمة مديح كطفل لمح لعبة جديدة، ومنهم من يفزع من كلمة النقد فزع المرأة من أن ترى امرأة أخرى ترتدي نفس الرداء. والقدرة على الحب والعطاء والاحساس ليست وقفا على الشعراء. بامكان عباد الله من الناثر ين أن يحبوا بعمق وتفان وأن تمر بهم

أعمق العواطف وأغزرها وأن يعيشوا تجارب تفوق في اصالتها وروعتها تجارب أعظم الشعراء.

ومن الأوهام التي تحيط بالشعر وتأبى ان تفارقه وهم مؤداه ان الشعر ـــ ولسبب مجهول لم يوضحه أحد بعد ـــ يفوق غيره من وسائل التعبير الفني وهذا الوهم هو الذي يدفع كل طالب في المدارس الثانوية الى تجربة حظه مع الشعر. وهو الذي يدفع بعض كتاب النثر الفني الى الاصرار على ان مايكتبونه شعراً. وهو الذي يجعل معظم الشعراء يشعرون بشيء من الزهو والتعالي على غير الشعراء. والحقيقة ـــ ومعذرة للشعراء من القراء ـــ هي ان الشعر من حيث المبدأ لا يتمتع بأي ميزة على غيره من وسائل التعبير. بوسع قطعة نثرية أن تكون أروع وأجمل وأعمق أثراً من قطعة شعرية. بوسع مسرحية أن تثير في قارئها من النشوة الفنية مالا يثيره مائة ديوان. بل ان الكلام العادي يتفوه به انسان عادي قد يكون في بساطته وعفويته وصدقه أروع من أعمق الرموز الشعرية.

ويتفنن بعض النقاد في وضع قائمة للمواصفات التي يجب أن تتوفر في الشاعر ليحظى برضاهم. ومن هذه المواصفات واحدة تتحول تدريجيا الى كليشيه وهي ان الشاعر يجب أن يكون مفكراً عظيماً في الوقت نفسه. لا جدال في أن الموهبة المدعمة بثقافة واسعة أقدر على التعبير والابداع من الموهبة التي تتغذى على نفسها. ولكن الايمان بهذا شيء واشتراط ان يكون الشاعر مفكراً عظيماً شئ آخر. بامكان الشاعر ان يكون مبدعاً دون فكر عظيم. لقد أهمل التاريخ الأدبي اشعاراً لفلاسفة نابغين واحتفظ باشعار لمجانين وموسوسين. ولست أدري أي فكر عظيم يختبىء خلف اشعار بودلير أو ريلكة أو بايرون وأي فكر عظيم عند شعراء معاصرين عرب مثل السياب وناجي وأبو ريشة ونزار قباني؟

ويتواضع بعض النقاد فلا يشترط الفكر العظيم ويكتفي بان تكون للشاعر «فلسفة حياتية محددة» أو «رؤية كونية متميزة» أو قدرة على كشف حجب المستقبل والتنبؤ بمصير الحضارات. من النقاد من لا يتمتع بقراءة قصيدة رائعة بحجة انه لا يجد فيها موقفاً محدداً للشاعر من الوجود. ومنهم من يعيب على الشاعر لأنه بحث في شعره عن نبوءة مستقبله فلم يجدها وكأنّ الشاعر كاهن من الكهان أو بصارة من قارئات البخت. هذه

المواصفات لا تقل شططا عن سابقتها فالشاعر قد يكون فيلسوفا وقد لا يكون، قد يتميز برؤ ية كونية وقد لا يتميز، قد يقدر على التنبؤ وقد يعجز عنه دون أن يكون في هذا كله ما يرفع من قدر شعره أو يحط منه.

وهناك بعد المواصفات العامة مواصفات خاصة يفصلها كل ناقد بحسب مزاجه وذوقه الشخصي. هناك ناقد يتطلب في الشاعر الالمام الدقيق بانتاج فترة تاريخية أدبية معينة، وهناك ناقد يفضل أن يكون الشاعر من المتعمقين في الأساطير اليونانية (ولعل هذه المواصفة هي التي تجعل شعرنا الحديث يبكي على اطلال الأولمب كما بكى الشعر القديم عند الدخول فحومل و يصف الفينيق— وهو لعلم غير المتعمقين في الأساطير اليونانية طائر خرافي يحترق و يتحول الى رماد ثم يعود من جديد وهكذا— كما كان الشعر القديم يصف الناقة). وثالث لا يعجبه شاعر الا اذا كانت لديه القدرة على اصطياد الرموز من التراث الحضاري. ورابع يتطلب في الشاعر القدرة على الربط بين القضايا العامة والتجارب الشخصية. ولعلنا لو جمعنا مواصفات الشعراء عند مختلف النقاد لوجدنا انها تملأ دفتراً شبيها بدفاتر مواصفات المشاريع الحكومية.

و بعد هذه الهالات والمواصفات يثور النقاش حول دور الشاعر. ذلك انه يبدو أن أحداً لا يكفيه من الشاعر أن يقوم بدوره الوظيفي والحياتي والعائلي والاجتماعي والوطني كأي مواطن آخر ولا يكفيه من الشاعر ان يعبر عن تجاربه ومشاعره في شعر ينشره على الناس فيعجب بعضهم ولا يعجب البعض الآخر و يثير في نفوس بعضهم نشوة وفرحة ولا يثير في نفوس بعضهم سوى الملل والسأم و يبقى وقتاً يطول أو يقصر قبل أن يلفه النسيان. هناك من يريد من الشاعر أن يتحول الى جهاز راديو يتكلم و يسكت مشيئة الأصابع التي تعبث بمفاتيحه. وهناك من يريد من الشاعر أن يصبح وزارة اعلام مصغرة تنشر المعلومات وتذيع الأخبار وتصدر الجرائد والنشرات. وهناك من الوطنيين من يطلب من الشاعر أن ينقلب الى وزارة دفاع ترانزستور ترد كيد الأعداء وتشد أزر الأصدقاء وتحول أفظع الهزائم —بقدر شاعر— الى أروع الانتصارات. ولا أدري لماذا لا نذهب مع هذا المنطلق حتى نهايته فنطالب الشعراء بنظم أنظمة المرور على هيئة أراجيز ليسهل حفظها على السائقين ونطالبهم بصياغة الارشادات الزراعية

شعراً يتغنى به موظفو الزراعة والفلاحون ونطالبهم بقصائد طنانة في أسبوع الصحة ومحو الأمية وسفلتة الشوارع؟

والحديث عن دور الشاعر يجرنا بالضرورة الى الحديث القديم الجديد عن الالتزام. الذي أؤمن به هو التزام الشاعر بالصدق مع نفسه ومع تجاربه مع الآخرين. على الشاعر الا يزيف ضميره والا يزيف تجاربه والا يعرض مشاعره للبيع أو للايجار. الالتزام بهذا المعنى أمر ضروري لابد منه لكي يعبرالشاعر عن نفسه بأمانة ونزاهة. أما الالتزام الذي يحاول بعض النقاد فرضه على الشعراء والذي تحوّل الى موضة أدبية في شعرنا الحديث فالتزام من نوع آخر. يقصد هؤلاء النقاد بالالتزام ان يصدرالشاعر عن موقف سياسي معين وأن تكون أشعاره في خدمة هذا الموقف. و يبرر المؤمنون بالالتزام هذا القيد الرهيب على حرية الشاعر بكلمات وشعارات برّاقة تتحدث عن قضاياالانسان وتمجد الفن للحياة وترفض الشعر الذاتي. و ينسى هؤلاء ان الشعر الانساني ليس وقفاً على شعراء دون شعراء، وان الفن لا يمكن أن ينزوي عن الحياة وان قضايا الانسان قد تكون سياسية وقد تكون فلسفية وقد تكون عاطفية والذين يتصورون ان الشعر السياسي أكثر انسانية من شعر الحب يجهلون طبيعة الانسان الذي كان وظل وسيبقى يحب و يتغنى بالحب حتى في الحروب والمحن والنكبات. والذين يتصورون ان هناك نوعين منفصلين من الفن، أحدهما للفن والآخر للحياة لا يدركون ان الفن لا يقبل هذه التجزئة المصطنعة وانه كل واحد لا يستطيع ان يتخلى عن فنيته لأنها عنصر أساسي فيه ولا عن ارتباطه بالحياة لأنه لا يستطيع التنفس الا في الحياة. **ان الذين يعيبون على الشاعر ذاتيته ينسون أن الشعر الذي لا تلمح فيه ذات الشاعر بقلقها وانفعالاتها وملامحها شعر بلا طعم ولا لون ولا رائحة.**

ان الدعوة الى تجنيد الشعر لخدمة القضايا السياسية والاجتماعية تتعامى عن حقيقة رئيسية هي ان الشعر لا يمثل بداية الفكر الانساني ونهايته. لقد لجأ الانسان الى الدين بحثاً عن منشأ الكون ومصيره، ولجأ الى الفلسفة لتفهم مشاكل النفس والحياة، ولجأ الى العلم لاكتشاف قوانين الطبيعة واستغلالها ولجأ الى الشعر ليعبر عن مشاعره من ألم وفرح وشقاء. ومن الشطط ان نلجأ الى الشعر باحثين عن اجابة على معضلة الحياة ولغز الكون وان نتجاهل الديانات والفلسفات. ومن العبث ان نستعين بالشعر لتطوير

المجتمع وتحديثه وأمامنا مختلف العلوم الاجتماعية والطبيعية وهي أقدر من الشعر ألف مرة على خدمتنا في هذا المجال. ان دراسة موضوعية في التنمية الاقتصادية أنفع بمراحل من قصيدة عصماء ، في المجد الضائع ، وإن خطة عسكرية مدروسة أنفع بمراحل من الأكداس المكدسة من شعر المقاومة الذي يزال بعض الشعراء ينتجونه بالجملة

انني أؤمن باختصار بأننا يجب الا نخنق الشعر بالهالات والأوهام والا نثقله بالمواصفات والا نتطرف في مطالبنا منه. فليعبر الشاعر عن مشاعره بصدق وجمال، ولتكن هذه المشاعر بعد ذلك في الحب أو في السياسة أو في الصمود أو في الهزيمة. ليغن لنا الشاعر بعفوية واخلاص وليغن عن النضال أو عن فرحة الموعد الأول وليتغزل في الانتصار أو في عيون طفلة تبتسم.

ليكن الشاعر مفكراً عظيماً اذا شاء، وليكتب عن القضايا الاجتماعية اذا أحب وليستعن بالرموز والأساطير اذا شاء، ولكننا نريده في هذه الحالات كلها صادقاً لا يخدعنا ولا يخدع نفسه.

هذا موقفي من الشعر. ولعله في النهاية نابع عن فشلي بعد سنين عديدة مع الشعر أن أصبح فيلسوفاً أو مفكراً أو محترفاً الحديث عن قضايا الانسان أو ملتزما بما شاء النقاد ذلك أن الشعراء ــ كبقية الناس ــ أعداء ماجهلوا.



رأيٌ في التعليم

سلاحنا في الحرب ضد التخلف ذو شقين: الامكانيات المادية والامكانيات البشرية، وعندما نتحدث عن التعليم فاننا نتحدث عن ذلك المرفق الذي يعد ثروتنا البشرية التي تزيد في أهميتها عن ثروتنا المادية.

والاعتبارات الاقتصادية وحدها، بصرف النظر عن أية اعتبارات فكرية تجعل نظام التعليم عاملا ذا أثر كبير على مستقبلنا. المعادلة بسيطة: رخاء هذا الجيل والأجيال القادمة، يعتمد على تحقيق التنمية الاقتصادية، والتنمية الاقتصادية تحتاج قبل كل شئ الى رجال مؤهلين في شتى المجالات، والتعليم هو المرفق الذي يعد هؤلاء الرجال. وحديثي عن التعليم اليوم لا ينصرف الى تقييم بعض جوانب نظام التعليم الحالي، وانما يناقش فلسفة النظام مناقشة آمل ان تثير اهتمام المختصين في التربية، وأن تبدأ حوارا بناء حول منطلقات التعليم والنظام الأصلح لمواجهة تحديات التنمية.

لقد بدأ نظام التعليم الحالي القائم على المستويات الأربعة: الابتدائي والاعدادي والثانوي والجامعي في مصر ومنها نقلته معظم الدول العربية، ولقد كان تطور ذلك النظام في مصر يرجع الي ظروف تاريخية واجتماعية وسياسية ليس هذا محل بحثها. الذي يعنيني هنا ان النظام لم ينشأ في بيئة كل دولة عربية وعلى ضوء تجربتها الخاصة واحتياجاتها، وانما نقل بحذافيره تقريباً من التجربة المصرية. ولا تزال الصلة بين الأنظمة التعليمية العربية والنظام التعليمي المصري من القوة بحيث ان أي تعديل في النظام المصري تتبعه في العادة تعديلات مماثلة في بقية الأنظمة.

وكون نظام التعليم لم ينشأ عندنا ليس في حد ذاته عيباً فمن البديهي اننا يجب أن

نستفيد من تجارب غيرنا من الدول، وعلى الأخص الدول العربية الشقيقة التي سبقتنا في الأخذ بأسباب النهضة. غير ان هذا النظام التعليمي لم يستطع أن يتمشى مع هدف التنمية الاقتصادية في مصر والشكوى منه هناك عامة وعنيفة وقد بذلت كثير من المحاولات لاصلاحه وتغييره، واذا كان هذا النظام قد ضرب بجذوره في مصر بحيث أصبح غير قابل للاقتلاع فليس معنى ذلك اننا بدورنا عاجزون عن تغييره. وهناك أسباب عديدة تدفعني الى الاقتناع بان هذا النظام يجب أن يتغير تغييراً جذريا.

نظامنا التعليمي الحالي لا يعد الطالب الا لأحد أمرين: تولي وظيفة كتابية صغيرة، أو اكمال دراسته الجامعية. أي اننا لا نستطيع أن نعتمد على نظامنا التعليمي في انتاج الكهربائيين والميكانيكيين والصباغين والمساحين وبقية العمال المهرة. والحاجة الى هؤلاء في عملية التنمية أكثر بكثير من الحاجة الى شاغلي الوظائف الكتابية الصغيرة والى بعض خريجي الجامعة

قد يقال ان هناك مدارس فنية ومهنية يستطيع الطلاب ان يلتحقوا بها، وهذا صحيح بلا شك ولكن هذه المدارس ليست من صلب النظام التعليمي بمعنى ان للطالب الخيار بين الانضمام اليها أو مواصلة الدراسة حتى الحصول على شهادة جامعية والغالبية الساحقة من الطلاب تفضل سلوك السبيل الأخير بحيث يكاد الانضمام الى المدارس المهنية والفنية يقتصر على الفاشلين دراسياً أو من تمنعهم ظروف قاهرة من مواصلة التعليم العادي. في سنة ١٣٨٩ ـــ ١٣٩٠هـ بلغ عدد طلاب المرحلة الابتدائية ٢٦٧,٥٢٩ طالباً وعدد طلاب المرحلة الاعدادية ٣٧,٣٨٩ طالباً وعدد طلاب المرحلة الثانوية ٨,٢٤٢ طالباً بينما لم يصل عدد الطلاب الفنيين والمهنيين سوى ٦٩٤ طالبا. وفي نفس السنة كان عدد المدارس الفنية والمهنية ٤ بينما وجدت ١٣٨٣ مدرسة ابتدائية و٢١٥ مدرسة اعدادية و ٢٩ مدرسة ثانوية(١).

في ظل نظامنا التعليمي الحالي ينتقل الطالب من مرحلة الى المرحلة التي تليها بطريقة شبه تلقائية حتى يصل الى الجامعة. ينقطع جزء قليل في نهاية كل مرحلة عن

(١) خطة التنمية الاولى ص ١٣٤.

المدرسة وهؤلاء يستوعبهم الاقتصاد في وظائف كتابية صغيرة. أما بقية الطلاب فيتجهون نحو اكمال دراستهم الجامعية. واتجاه الطلاب حتى الآن يميل بشكل واضح الى تفضيل الكليات النظر ية على العملية(١).

وتبين احصائيات جامعة الر ياض هذا التفضيل بجلاء. فيما بين سنة ١٣٨١ وسنة ١٣٨٩هـ خرجت كلية الآداب ٤٣٦ طالباً وخرجت كلية التجارة بين سنة ١٣٨٣ وسنة ١٣٨٩هـ٤١١ طالباً بينما لم تخرج كلية العلوم في الفترة بين ١٣٨٢ وسنة ١٣٨٩ سوى ١٥١ طالباولم تخرج كلية الصيدلة في الفترة بين سنة ١٣٨٣ وسنة ١٣٨٩هـ سوى ٥٦ طالباً. وحتى في داخل كل كلية كان الطلاب يتجهون الى التخصص الأسهل لا التخصص الذي تحتاج اليه البلاد. ولعل خير دليل على ذلك ان كلية الآداب خرجت في الفترة المذكورة ٣٥٤ طالباً من قسمي التار يخ والجغرافيا ولم تخرج سوى ٨٢ طالباً من قسمي اللغة العر بية والانجليز ية رغم الحاجة الشديدة الى خريجي اللغة الانجليز ية، وذلك لسهولة التخصصين الأولين النسبية.(٢)

ماالذي يعنيه هذا كله؟ يعني ان نظام التعليم في فترة ما قبل الجامعة لا يدرب سوى نسبة ضئيلة من الطلاب تدر يبا مهنياً وفنياً وان نظام التعليم الجامعي يخرج الطلاب بنسبة تتزايد مع سهولة التخصص وتقل مع صعوبته و بصرف النظر عن احتياجات البلاد الفعلية الى نوع التخصص. واذا استمر هذا الاتجاه فسوف نجد أنفسنا في يوم قر يب أمام جيش من المؤرخين والجغرافيين والأدباء والاقتصاديين في الوقت الذي لا نزال فيه بأمس الحاجة الى السباكين والميكانيكيين والمساحين. وليس كلامي انتقاصاً للتار يخ والجغرافيا والأدب بقدر ماهو تقر ير حقيقة لا مفر منها وهي ان التنمية الاقتصادية تحتاج الى جهود الذين يسفلتون الشوارع و يقيمون الأبنية ويمدون

(١) كتب هذا المقال سنة ١٣٩٢هـ.

(٢) أنظر كتيب اسماء خريجي جامعة الر ياض الحاصلين على شهادة البكالور يوس عام ١٣٨١ حتى عام ١٣٨٩ «الصادر من جامعة الر ياض سنة ١٣٩٠هـ».

الانابيب قبل ان تحتاج الى جهود شعراء، ككاتب هذه السطور، ينوحون على الكرامة المهدورة والمجد الأثيل الضائع.

كنا نقول ذات يوم اننا بلد متخلف في جميع الميادين وان بامكاننا بالتالي أن نستفيد من أي نوع من أنواع التخصص وقد أدى هذا الاعتقاد بالاضافة الى السهولة التي يلاقيها جميع المتخرجين في التعيين الى اهمالنا التخطيط التعليمي بعيد المدى غير اننا يجب أن نتنبه من الآن الى أن خريجي الكليات النظرية سيواجهون بعد سنوات قليلة أو كثيرة مستقبلاً كالذي واجهه زملاؤهم خريجو هذه الكليات في بلاد عربية أخرى. البطالة أو وضعهم في أعمال لا علاقة لها على الاطلاق بدراستهم. وما لنا نذهب بعيداً وقد بدأنا نشهد في بلدنا مظاهر التضخم في الوظائف الكتابية علي حساب الوظائف الفنية.

انني لا أطالب هنا بتحديد عدد خريجي الكليات النظرية وترك الكليات العلمية تخرج كما يروق لها على أساس ان خريجيها لن يجدوا صعوبة في الحصول على عمل: الأمر ليس بهذه السهولة. الخبرات العلمية الجامعية تحتاج الى خبرات فنية ومهنية كي تؤتي أكلها. الطبيب الواحد مثلاً يحتاج الى خدمات الكثير من الفنيين المدربين الذين لا يستطيع دونهم أن يقوم بواجبه. والأمر نفسه ينطبق على الصيدلي والكيماوي والمهندس. يجب أن يكون تخريج هؤلاء متمشياً مع أعداد الفنيين الضروريين. لا جدوى من تخريج أطباء بلا ممرضين، ومهندسين بلا مشرفين على البناء، وكيماويين دون مساعدين فنيين يعدون المعامل. الخبرات العلمية دون خبرات فنية ترف فكري واحصائيات نتباهى بها دون أن يكون لها دور كبير في التنمية الاقتصادية والاجتماعية.

كيف نستطيع اذن تغيير النظام بشكل يتمشى مع متطلبات التطور ويجعل العامل البشري قوة تدفع التنمية لا عقبة تعوقها؟ أعتقد أنه يجب أن يكون هناك تقييم جذري للتعليم عندنا يتناول مراحله الأولية والجامعية على حد السواء. واذا كان لا بد من الاقتباس فلنقتبس النظام المعمول به في أوربا الغربية، وفي بريطانيا على وجه التحديد. يتلقى النظام المقترح الطالب في سن السادسة ويدرسه لمدة سبع سنوات متتالية في مرحلة واحدة المواد الأولية الضرورية. بعد هذه المرحلة يجري تقييم الطلاب

عن طريق امتحانات موضوعية دقيقة وعادلة وتقسيمهم الى نوعين. النوع الأول وهو غالبية الطلاب و يوجه الى المدارس المهنية من صناعية وزراعية وتجارية وسكرتارية الخ .. والنوع الثاني: وهو الأقلية، و يشمل الطلاب الحائزين على نسب عالية جداً و يوجه الى المدارس الثانوية لمدة أربع سنوات ومنها الى الجامعة. ومن الممكن إيجاد شروط تسمح للمتفوقين في المدارس المهنية بالانضمام الى المدارس الثانوية، ثم الجامعة . أما الجامعة فيصبح واجبها قبول الطلاب في الكليات والاقسام على أساس احتياجات البلاد الراهنة والمستقبلة لا أن تترك القبول لرغبات الطلاب التي كثيراً ما تكون مبنية على اعتبارات السهولة.

والنظام المقترح يتطلب عدة شروط لنجاحه. يتطلب أولاً ألا يترك الخيار للطالب بين التعليم المهني والتعليم الثانوي وإلافضل الجميع التعليم الثانوي فمن ذا الذي يريد أن يترك «وجاهة» الوظيفة بما فيها من قهوة وشاي وسلامات واحترامات ليعمل بيده في حر الصيف أو قر الشتاء؟ و يتطلب ثانياً أن يتلقى خريج المدارس المهنية أجراً يسمح له بحياة كريمة وأن يتدرج في السلك الوظيفي شأنه شأن زميله الجامعي. ان الهدف من النظام المقترح ليس معاقبة المهنيين أو إذلالهم وانما نفع البلاد بخبراتهم ومكافأتهم مكافأة سخية تجعلهم، اقتصادياً واجتماعياً، في مستوى خريجي الجامعة. و يتطلب، ثالثاً، أن يكون هناك تنسيق شامل لعملية التعليم لتفادي تكرار الجهود أو التناقض بين الجهات القائمة على التعليم. و يتطلب، رابعاً، اعادة النظر في فلسفة التعليم الجامعي بحيث يكون التركيز على الكيف لا على الكم: عشرة خريجين يفيدون البلاد خير من مائة يكونون عبئاً عليها. وجامعة واحدة متكاملة خير من عدة جامعات تعاني مختلف نواحي النقص.

مثل هذا النظام ــ وليست هذه سوى رؤوس أقلام له ــ يتيح للاقتصاد أن يحصل على حاجته من الفنيين والمهنيين ــ و يتيح للطلاب ذوي الملكات العقلية الملائمة اكمال دراستهم الجامعية ويجعل عدد خريجي الجامعات متناسبا مع متطلبات التنمية و يكفل ــ اذا درس وطبق بدقة وأمانة ــ أن العامل البشري سيقوم بدوره الكامل في خدمة هذا الجيل والأجيال القادمة

نحن والحضارة الغربية

أقرأ بين الآونة والأخرى مقالات انشائية عاطفية تتحدث عن سموم الغرب وبريق المدنية الزائف وتنتهي بدعوة صريحة أو مبطنة الى مقاطعة الحضارة الغربية مقاطعة كاملة. ولو كانت هذه الدعوة تطلب منا رفض حضارة قبيلة من قبائل الاسكيمو لما أثارت اهتمامنا. ولو انها تفرق بين شتى جوانب الحضارة الغربية فتؤيد اقتباس بعضها وتدعو الى رفض البعض الآخر لوافقت أصحابها كل الموافقة أو بعض الموافقة أما والأمر يتعلق بالحضارة الغربية التي لعبت دوراً حاسماً في تطور البشرية والتي حققت من التقدم المادي والعلمي مالم تحققه حضارة قبلها والتي تمسك اليوم بيدها مفاتيح الحرب والسلام، واما والدعوة دعوة مقاطعة كاملة فلا بد لنا من وقفة هادئة نناقش فيها هذه الدعوة ثم ننتقل الى الحضارة الغربية فنتساءل عن الموقف الذي يجب أن نتخذه منها.

أول ما نلاحظه على دعوة رفض الحضارة الغربية انها دعوة غير عملية. لقد عمت آثار الحضارة الغربية الأرض بأكملها بحيث لا يستطيع أن يتجاهلها أحد. أشد الناس عداوة للحضارة الغربية يلبس ثياباً صنعتها مصانع الغرب ويروح ويغدو في سيارات من انتاج دويترويت ولندن. وحتى الأقلام التي تدبج أبلغ قصائد الهجاء في الغرب مصنوعة في الغرب. بوسعنا أن نبغض الحضارة الغربية أو نحبها وبوسعنا أن نمدحها أو نذمها ولكن ليس بوسعنا أن نزعم أننا نستطيع العيش دون منجزاتها العلمية والتكنولوجية أو ننكر أنها تلعب دوراً كبيراً حتى في حياتنا اليومية العادية.

ونلاحظ على دعوة رفض الحضارة الغربية انها مبنية في الغالب الأعم من الحالات على فكرة سطحية عن هذه الحضارة أو على جهل تام بها. الحضارة الغربية

بخلاف ما يعتقده قراء مجلات الاثارة من غربية وشرقية، ولا تبدأ وتنتهي بالشعور الطويلة وحفلات الجنس والمخدرات. الحضارة الغربية كما سنرى بعد قليل ظاهرة شديدة التعقيد لا تنقاد لتقييم سريع أو حكم عابر. والذين يبلغ بهم عداؤهم لهذه الحضارة حد تجاهل كل جوانبها الايجابية لا يقلون في هروبهم عن الواقع عن اولئك الذين تبهرهم أضواء تلك الحضارة فيهيمون بها غراماً ولا يرون فيها موضعاً لانتقاد أو مكاناً لمأخذ.

ودعوةرفض الحضارة الغربية تنبع أولاً وقبل كل شيء من خوف على الدين والتقاليد والعادات. وهذا الخوف في حد ذاته أمر مشروع ولكن يجب الا نسرف فيه. لقد بقي الاسلام عبر أشد المحن وأحلكها وسيبقى حتى يرث الله الأرض ومن عليها واقتباس بعض الجوانب الايجابية في الحضارة الغربية لن يضير الدين في شيء وحتى التقاليد والعادات لا خوف عليها من الاقتباس المتبصر. لقد نقلت اليابان التكنولوجية الغربية والأساليب الاقتصادية الغربية دون أن تفقد طابعها المتميز أو عاداتها الخاصة.

وكما أن هناك من يغالي في كراهية الحضارة الغربية فيدعو الى معاداتها فان هناك من يهيم بها حباً و يدعو الى نقلها بحذافيرها. وكما أن هناك من لا يرى في الحضارة الغربية سوى مساوئها فان هناك من لا يرى سوى محاسنها. والموقف الصحيح وسط بين الموقفين. ليست الحضارة الغربية شراً خالصاً أو خيراً خالصاً. الولايات المتحدة الامريكية مثلاً تمكنت من ارسال انسان الى القمر ولم تتمكن بعد من اقامة نظام انساني للرعاية الصحية (وقبل أن يتسرع أحد فيعتبر هذه الحقيقة الأخيرة ممثلة لروح الحضارة الغربية أبادر الى القول ان مثل هذا النظام الانساني للرعاية الصحية يوجد في بريطانيا وعدد من دول أوربا الغربية). الحضارة الغربية هي التي أكتشفت البنسلين وغيره من العقاقير السحرية وهي ذاتها التي أكتشفت القنبلة الذرية وأستعملتها. في السويد توجد أعلى نسبة في العالم لادمان الكحول والانتحار، كما يوجد مستوى من الرفاهة والخدمات الاجتماعية يندر أن يوجد له مثيل في دولة أخرى. لقد نجحت بعض دول الغرب في اقامة ديمقراطيات ذات حريات واسعة ومتعددة ولكن هذه الدول ذاتها لم تخل من أقليات اضطهدت أبشع اضطهاد كالهنود الحمر والزنوج في الولايات المتحدة الامريكية وكالسكان الأصليين في استراليا. والمبادىء الانسانية الرائعة التي تفخر

حضارة الغرب بالدفاع عنها كثيراً ما كانت تطرح عرض الحائط في علاقات الدول الغربية بالمستعمرات والشعوب الضعيفة، للحضارة الغربية اذن وجوه متعددة مختلفة ويجب الا يلهينا قبح أحد هذه الوجوه أو جماله عن التفرس في بقيتها.

وفي الحضارة الغربية جوانب لا مناص من اقتباسها اذا أردنا الخلاص من تخلفنا الراهن. وهذه الجوانب تشمل التكنولوجيا والعلوم الطبيعية والاجتماعية وطرق الادارة وأساليب التخطيط العلمي. في هذه المجالات تقود الحضارة الغربية بلا منازع العالم بأجمعه. كل ما يتم من تقدم في هندسة الصواريخ وفي جراحة القلب وفي نظريات الاقتصاد وفي تحسين الكفاية الانتاجية يتم في الغرب على يد علماء غربيين يتحدثون بلغات غربية.

وفي هذه المجالات يتضح خطر الدعوة الى مقاطعة الحضارة الغربية. الخيار أمامنا بسيط لا يسمح بتردد أو تهيب. أما أن نتعلم هذه الاشياء من الغرب بلغتنا ان أمكن وبلغاتهم ان لزم الأمر، واما أن نبقى متخلفين عن ركب المدنية. ولقد علمنا حزيران الأسود ان ثمن هذا التخلف قد يكون كرامتنا وأراضينا واستقلالنا السياسي.

وهناك جوانب في الحضارة الغربية يحسن بنا أن نلم بها دون أن يتبع ذلك بالضرورة نقلها أو اقتباسها. وهذه الجوانب تشمل التراث الغربي في السياسة والفلسفة والأدب والقانون والواقع أن الخلاف الذي يثور حول الحضارة الغربية انما يثور حول هذه الجوانب بالذات. وهنا يجب أن نقف موقفاً وسطاً فلا نقر الذين يدعوننا الى أن ننقل من الغرب تراثه السياسي والفكري والقانوني ولا نتفق مع الذين يريدون حرماننا حتى من دراسة هذا التراث والالمام به.

لقد أثبتت تجارب عديدة مريرة أن نقل دساتير الحكم الغربية من بيئتها الى تربة شرقية مختلفة تمام الاختلاف لا ينجم عنه سوى ذبول تلك الدساتير وموتها قبل أن تتفتح براعمها كما أثبتت تجارب عديدة مريرة أن العقائد والمذاهب المستوردة لا تنجح ما لم تفرض فرضاً بقوة السلاح. ولهذا يجب أن نفكر طويلاً قبل نقل فلسفة من فلسفات الغرب أو نظام قانوني من أنظمته. خير لنا أن نطور حلولا محلية لمشاكلنا المحلية من أن نستورد حلولاً لا يفهمها أحد وبالتالي لا يستطيع أن يطبقها أحد.

لقد ضرب فقهاؤنا الاوائل مثلا رائعا لكيفية مواجهة تحديات العصر بنجاحهم في أن يفسروا الشريعة الاسلامية و يستنبطوا منها القواعد الكافية لتنظيم كافة ما مر بهم من مشاكل تحتاج الى تنظيم. غير اننا اليوم وفي أواخر القرن العشرين لا نستطيع أن نكتفي بالتراث الفقهي الذي خلفه فقهاؤنا الأوائل. هؤلاء الفقهاء لم يشهدوا الباخرة ولا الطائرة ولا جوازات السفر ولذلك لم يتركوا لنا قواعد اسلامية في مواضيع القانون البحري والقانون الجوي وقوانين الجنسية.

أما نحن الذين نعيش هذا العصر بمخترعاته وتعقيداته ومشاكله وما يشهده من تغيرات هائلة لا يكاد يتصور أبعادها عقل فلا عذر لنا ان تراخينا في مواجهة تحديات العصر بأكملها وان تخاذلنا فلم نثبت بالعمل لا بالقول وحده، ان شريعتنا كافية لمواجهة كل ما يأتي به العصر من مشاكل ولوضع الحلول الملائمة لها.

والالمام بالتراث الغربي — وهو تراث خصب غني — قد يساعدنا على تطوير تراثنا الخاص. وقد كان فقهاؤنا الأوائل ملمين بثقافة عصرهم الماماً يبعث على الاعجاب. و ينطبق الشئ ذاته على فلاسفة المسلمين القدامى. ومثل هذا التفاعل مع ثقافة الغرب لا يؤدي في حد ذاته الى ضياع شخصيتنا المتميزة. ولا يجب أن يمنعنا من هذا التفاعل الخوف من الغزو الفكري الأوربي الذي يشتط بعض مفكري المسلمين فيكاد ينسب اليه كل ما يعرفه المسلمون من تأخر. والواقع أن من الأقرب الى الدقة أن نقول أن حالة التأخر التي تعيشها المجتمعات الاسلامية هي التي تجعل من السهل غزوها فكرياً. ما دمنا متخلفين فسنظل عرضة للغزو بمختلف أنواعه العسكرية والسياسية والاقتصادية والثقافية. ان عدونا الأكبر هو التخلف وهذا العدو أخطر علينا من أي غزو فكري قادم من الخارج. ان حالة التخلف التي نعيشها هي التي تدفع بالبعض، في محاولة يائسة للتخلص من التخلف، الى البحث عن آراء مستوردة من الغرب. ان واجبنا الأول اذا أردنا أن نقاوم الغزو الفكري هو أن نثبت أن تخلفنا حالة عابرة عارضة لا علاقة لها بعقيدتنا وتراثنا الأصيل.

وهناك جوانب عديدة في الحضارة الغربية نستطيع أن نسميها الجوانب المحايدة. وهذه جوانب لا يضيرنا الاطلاع عليها ولا يضيرنا الجهل بها و بامكاننا أن نقتبسها أو

نصرف النظر عنها. في البلاد الغربية على سبيل المثال لا يعرف الناس القيلولة ولا يتزاورون دون موعد سابق ولا يأكلون على الأرض ولا بأصابعهم واذا دعوا شخصاً على الغداء لم يتوقعوا شخصين أو ثلاثة. أما لدينا فلا بد من القيلولة ولا بأس من زيارة دون موعد ولا مانع من أن تدعو ضيفاً يدعو بدوره ضيفاً (وقد ابتكرت اللغة العربية كلمة الضيفن وهو ضيف الضيف وهي كلمة أشك في أن في أي لغة غربية ما يعادلها). ومن الشطط أن نعتبر العادات الغربية في مثل هذه المجالات أفضل من عاداتنا. إن الذين يتصورون اننا لن نتقدم الا اذا لبسنا قمصاناً مشجرة على الطريقة الامريكية أو أنفنا من الأكل باليد قوم لا يمتد بصرهم الى أبعد من القشور والسفاسف. لقد استطاعت اليابان أن تصبح دولة صناعية من الدرجة الأولى ومع ذلك فلا يزال اليابانيون يأكلون السمك النيئ و يستخدمون أعواد الخشب في تناول طعامهم ولا زالت المرأة اليابانية ترتدي لباسها الوطني المميز.

وهناك في الحضارة الغربية جوانب لا بد لنا من رفضها رفضاً باتاً لا لأنها تتناقض مع بيئتنا الشرقية فحسب ولكن لأنها تتعارض مع كل منطق سليم من هذه الجوانب موضوع الأزياء والموضات. من السخف أن تسارع نساؤنا الى نقل كل بدعة يخرج بها مصممو الأزياء في باريس لترويج منتجاتهم ومن السفه أن يحاول رجالنا تقليد آخر تقاليع الأزياء الايطالية. والمؤلم أن هذه الناحية بالذات هي الناحية التي برعنا في نقلها من الغرب وهي الناحية التي تمثل في نظر الكثير من البسطاء الوجه الحقيقي للتمدن الغربي.

وهناك جوانب لا انسانية في الحضارة الغربية يطلع عليها كل من عاش فترة من الزمن في الغرب. ومن أهم هذه الجوانب تفكك الروابط العائلية واضمحلالها. كنت أعرف شاباً في لوس أنجلوس يأخذ من أخيه الذي يقطن على بعد مائة كيلو متر من المدينة كلما ذهب لزيارته ثمن ما استهلكته سيارته من بنزين في الرحلة. ولقد نتج عن تفكك العرى العائلية وضع مؤلم بالنسبة لكبار السن الذين يتحولون عندما يبلغون سن التقاعد الى عبء ثقيل على ذويهم وكثيراً ما يلجأ هؤلاء الى التخلص منهم بادخالهم منازل أعدت خصيصاً لرعاية المسنين يتوفر فيها الاشراف الكافي على راحة المسن ولكنها ولا شك تفتقر الى ما يزخر به المنزل العائلي من حدب وحنان ومحبة.

وفي الغرب يفتقد المرء كثيراً من اللمسات الشخصية الانسانية التي يجدها في البيئة الشرقية. من الممكن هناك أن تسكن في منزل سنوات عديدة دون أن تتبادل مع جيرانك حتى تحية الصباح. ومن الممكن أن تقع مريضاً في الشارع فيمر بك عدد كبير من الناس دون أن يلتفتوا اليك. وقد ثارت فضيحة كبرى قبل عدة سنوات عندما قتلت فتاة في شوارع نيو يورك في منتصف الليل. كانت هذه الفتاة تستنجد بأعلى صوتها وهي تركض من شارع الى شارع والقاتل يطاردها و يطعنها من حين الى آخر، وقد استمرت المطاردة بعض الوقت وشهد المنظر عشرات الأشخاص من نوافذهم ومع ذلك فلم يحاول أحد أن يساعد الفتاة أو حتى أن يتصل بالشرطة

كما أن للحضارة الغربية بعض الخصائص المميزة التي يجب أن نحذر من تسللها الينا. ومن هذه الخصائص فلسفة الاعلان التي أصبحت تطبع المجتمع الغربي كله بطابعها والتي بلغت ذروة نفوذها في الولايات المتحدة. الاعلانات في الغرب لا تكتفي بارشادك الى السلعة التي تحتاج اليها ولكن تبذل جهدها لايجاد حاجة مصطنعة الى سلع لم يكن أحد ليحتاجها لولا الاعلان. وفي الولايات المتحدة الأمريكية تمثل الاعلانات منغصاً يعكر صفو الحياة فهي تطالعك في كل شارع وهي تلاحقك أينما ذهبت وهي تصم اذنك من الراديو وتصرخ في وجهك في التلفزيون. ومن الأمور التي يجب أن نحذر في نقلها المنافسة الشديدة القاسية التي تسود مناحي الحياة المختلفة في الغرب بحيث يصبح النجاح القيمة الحقيقية الوحيدة للمرء. ولا يخفى ما ينتجه هذا الوضع من توتر وقلق يساهمان في انتشار الأمراض النفسية.

باختصار، يجب ألا نقف من الحضارة الغربية موقفاً مبنياً على عاطفة أو انفعال أو حكم حماسي. يجب أن نتأمل في هذه الحضارة فنقتبس من علومها ونلم بتراثها الفكري الماماً لا يقتضي الاقتباس ثم ننظر الى جوانبها اللا انسانية فنرفضها ونطرحها. ولعل في مثل هذه النظرة المتوازنة ما يعيننا على أن نبني من جديد في بلادنا حضارة كحضارتنا القديمة التي كانت تقود العالم كله..

■●■

ماذا أتوقع ؟!

يتفضل بعض الاخوان مدفوعين بحسن ظنهم الى سؤالي بين الحين والآخر عما أتوقعه من تطورات في هذا الموضوع أو ذاك من الشؤون الدولية . ورغم سروري الطبيعي بمثل هذه الأسئلة الا أنني في العادة أجيب عليها اجابات مبهمة كسجع الكهان أو أمتنع عن الاجابة كلية وليس هذا الموقف من جانبي ضناً بالمعرفة ولا استئثاراً بالحكمة ولكنه تسليم بعجزي عن الوصول الى توقعات يركن اليها . وهذا العجز هو الذي يدفعني الى أن أحسد مئات الكتاب والمحللين العرب الذين لا يترددون في اعطاء توقعات مفصلة عن قضايا بالغة التعقيد . هذا يتوقع أن تحل مشكلة الشرق الأوسط في أسابيع . وهذا يتوقع انفجار الحرب خلال أيام ، وثالث ، ورابع ، غير انني اذا كنت أحسد هؤلاء الكتاب والمحللين على ثقتهم المطلقة في عبقرياتهم وتوقعاتهم فانني لا أحسد قراءهم لأنني أعرف ان الغالبية العظمى من التوقعات لن تصح على الاطلاق .

كل من يستعرض تجربته الشخصية في ميدان التوقعات الدولية يدرك أن عليه أن يفكر ألف مرة قبل المجازفة باعطاء أي توقع . والمشكلة لا تقتصر على الأفراد العاديين فحتى أذكى الزعماء والمع الدبلوماسيين قد يتورط اذا حاول التكهن بما يخبئه المستقبل . يروي المؤلف السياسي الأمريكي الشهير هانس مارجنثاو في كتابه (السياسة بين الأمم) ثلاثة أمثلة كتوقعات فشلت فشلاً ذريعاً رغم ان أصحابها كانوا سياسيين لامعين . في ١٧٧٦م صرح جورج واشنطن ان حرب الاستقلال ضد بريطانيا ستنتهي في أسابيع قليلة . ولم تنته هذه الحرب الا بعد سبع سنوات . في فبراير ١٧٩٢م برر رئيس الوزراء البريطاني «بت» تخفيض المصروفات العسكرية البريطانية على أساس أن الموقف في أوربا على درجة من الهدوء لم يسبق لها مثيل وان بالامكان توقع خمس عشرة

سنة من السلام. بعد هذا التوقع بشهرين اندلعت نار الحرب في القارة الأوربية وبعدها بأقل من سنة اشتركت بريطانيا في النزاع العنيف الذي دام حوالي ربع قرن. في ١٨٧٠م عندما تولى «اللورد كرانفيل» وزارة الخارجية البريطانية أبلغه وكيل الوزارة انه خلال تجربته الطويلة في العلاقات الدولية لم يلاحظ فترة سكون في العلاقات الدولية كالفترة الحالية، وانه لا يتوقع أن يواجه الوزير الجديد أي موضوع دولي هام. وبعد هذا التوقع بثلاثة أسابيع اندلعت الحرب الفرنسية البروسية.

وما لنا ننقب في كتب التاريخ الدبلوماسي وواقعنا مليء بأمثلة لا حصر لها لتوقعات لم يكتب لها أي حظ من النجاح. كان الخبراء بكمبيوتراتهم ونظرياتهم يتوقعون الا تطول الحرب في فيتنام سوى شهور قليلة وأن تنتهي باستسلام الفلاحين البدائيين بلا قيد ولا شرط أمام التكنولوجيا الأمريكية المتفوقة. وكان الخبراء قبل حزيران ١٩٦٧م يتوقعون كل شيء الا أن تنتهي الحرب في ستة أيام وعلى النحو الذي انتهت عليه وقبل حرب أكتوبر لم يتوقع أحد، حتى الاستخبارات الاسرائيلية الأسطورية موعد الحرب وبعد قيامها لم يستطع أحد، حتى نابغة العسكريين موشى دايان: أن يتوقع مجراها و تطوراتها.

ماهو السبب الذي يجعل توقعات الأفراد العاديين والخبراء المتخصصين تطيش عندما يكون التوقع متصلاً بشأن الشؤون الدولية؟

هناك أسباب متعلقة بسيكلوجية التوقع ذاته. المتوقعون بشر يخضعون لعواطفهم وأهوائهم قبل أن يخضعوا لعقلهم ومنطقهم. والبشر، باستثناء قلة من عتاة المتشائمين، يتوقعون أن يحدث ما يريدون حدوثه بالفعل: يتوقع الطالب أن ينجح بصرف النظر عن اجابته في الامتحان، ويتوقع المريض أن يشفى دون تحليل واقعي لطبيعة مرضه، وتتوقع الدولة أن يكون النصر حليفها في أي نزاع. وفوق هذا، فالتوقعات كثيراً ما تتأثر بالظروف الآنية والمرحلية: المنهزم يتوقع أن يستمر انهزامه، والقوي يتوقع أن تستمر قوته. والغني يتوقع أن يستمر غناه وهكذا والتوقع قد لا يستهدف وجه الحقيقة في ذاتها بل يرمي الى الوصول الى أهداف سياسية معينة: يتوقع زعيم ما أن تنجح دولته في سياسة معينة لأنه يريد بهذا التوقع رفع معنويات مواطنيه أو اضعاف معنويات العدو.

غير انه بالاضافة الى هذه الأسباب المتصلة بسيكلوجية التوقع فهناك أسباب متصلة بطبيعة الشؤون الدولية. العقبة الأولى التي تعترض طريق التوقع الدقيق في هذا الميدان هي تداخل عوامل كثيرة في أي موقف دولي. اذا أردت، مثلاً، أن أتوقع تطورات الموقف على الجبهة السورية كان لابد لي من الالمام بما يدور في أذهان صانعي القرارات السوريين وما يدور في أذهان صانعي القرارات الاسرائيليين وبالموقف السياسي والعسكري والاقتصادي في البلدين وبردود الفعل المنتظرة من الدولتين العملاقتين ومن الدول العربية ومن الدول الأوربية الرئيسية، لأن هذه كلها عوامل تدخل في صنع أي قرار يتعلق بالحرب أوالسلام على الجبهة. ومن البديهي أن الالمام بعامل أو عاملين في هذا الموقف لا يكفي للوصول الى توقع دقيق.

والعقبة الثانية هي أن الاتجاهات الموجودة في أي موقف دولي كثيراً ماتكون متعارضة بحيث يقف صانع القرارات وسط دوامة من الضغوط القوية المتناقضة. في كل دولة هناك «حمائم» و «صقور» دعاة تساهل ودعاة تصلب ولكل من الفريقين أنصاره ووزنه وتأثيره. أحياناً يتطلب الموقف السياسي اتخاذ اجراء عسكري حازم.. ولكن الموقف الاقتصادي يجعل اتخاذ هذا الاجراء مستحيلاً. هناك أحياناً ضغوط داخلية قوية باتجاه سياسة ما وضغوط خارجية لا تقل قوة عنها في الاتجاه المعاكس. ومن هنا نجد أن التوقعات المبنية على أساس اتجاه معين أو ضغط معين تنتهي بالفشل لأنها تجاهلت دور الاتجاهات المخالفة والضغوط المعاكسة.

والعقبة الثالثة التي تواجه مراقب الأحداث الدولية هي أن أكثر المعلومات الضرورية محاطة بالسرية الشديدة وان كثيراً من المواقف العلنية لا تمثل المواقف الحقيقية. تعلن الدولة (أ) أنها لم ولن تقبل حلاً وسطا مع الدولة (ب) في موضوع ما في الوقت الذي تكون فيه منهمكة في مفاوضات سرية مع (ب) بهدف الوصول الى حل وسط. البيان الرسمي الذي يذكر أن المحادثات تمت (في جو من الود والصراحة المتبادلة) كثيراً ما يعني، بعد ترجمته الى اللغة العادية، أن هناك خلافاً كبيراً في وجهات النظر تعذر معه تحقيق أي تقدم. الاتصالات اليومية غير الرسمية التي تتم بعيداً عن الأنظار والأضواء كثيراً ما تحقق نتائج تفوق نتائج المؤتمرات الكبرى والمباحثات

الرسمية التي تشد انتباه العالم بأسره. ومن هنا كان التوقع في الشؤون الدولية مبنياً، بالضرورة على معلومات ناقصة أو مغلوطة ومثل هذا التوقع يندر أن يتصف بالدقة.

والسبب الرابع في فشل التوقعات الدولية هو أن صاحب التوقع يبني توقعه على ما يعتبره منطقياً من وجهة نظره الخاصة و ينسى أن الدول لا تتصرف دائماً بطريقة منطقية وان ما تعتبره دولة ما عملاً عشوا ئياً لامعنى له تعتبره دولة أخرى عملاً عقلانياً منطقياً. ولعل الخطأ الرئيسي الذي وقعت فيه القيادة السياسية المصرية في عام ١٩٦٧م هو انها توقعت بعد الحشود المصرية العسكرية في سيناء أن تبحث اسرائيل عن مخرج سلمي للأزمة: «المنطق» يقضي الا تدخل اسرائيل معركة شاملة مجهولة الأبعاد من أجل مشكلة فرعية يمكن تسويتها كمشكلة المرور بالمضايق غير ان مابدا منطقياً في نظر مصر لم يكن منطقيا في نظر سرائيل اندلعت حرب حزيران. والغريب أن اسرائيل وقعت في خطأ مماثل سنة١٩٧٣م. تصورت اسرائيل أنه ليس من المنطقي أن تبدأ مصر وسوريا حرباً شاملة للوصول الى أهداف تعرفان مقدماً استحالة الوصول اليها. ولكن المنطق العربي كان غير المنطق الاسرائلي وأندلعت حرب أكتوبر.

هذه العقبات الأساسية التي تقف حجر عثرة دون الوصول الى توقعات دولية سليمة هي التي أثارت جدلاً عنيفاً بين مؤلفي العلاقات الدولية انتهى بانقسامهم الى فريقين. يرى الفريق الأول أن علم العلاقات الدولية سيتمكن في المستقبل من تذليل هذه العقبات وسيصبح علماً دقيقاً يمكنه التوصل الى توقعات دقيقة. و يرى الفريق الآخر أن هذه العقبات لا يمكن تذليلها وأن علم العلاقات الدولية سيظل دائما يفتقر الى الدقة في توقعاته ونظرياته.

ما الذي يعنيه هذا كله بالنسبة لنا كمتوقعين سواء المحترفين منا أو الهواة؟

هناك دروس خمسة يحسن أن نتذكرها قبل الشروع في أي توقع دولي:—

*** الدرس الأول:**

هو الا ننسى أبعاد جهلنا بطبيعة الموضوع المعقد الذي ندرسه وأن أمامنا شوطاً طويلاً يجب أن نقطعه قبل أن نعتبر أنفسنا خبراء أو علماء.

* والدرس الثاني:

هو أن نتجرد ما أمكننا من عواطفنا ورغباتنا وأهوائنا وحساسياتنا وأن نتشبث بأكبر قدر ممكن من الموضوعية.

* والدرس الثالث:

هو أن نضع أنفسنا موضع الطرف الذي نحاول توقع حركاته، وأن نفكر كما يفكر، ونخطط كما يخطط على ضوء منطلقاته ومفاهيمه.

* والدرس الرابع:

هو أن نحرص على جمع المعلومات الدقيقة والصحيحة حول مختلف جوانب الموقف، وأن نعطي كل عامل في الموقف وزنه الحقيقي.

* والدرس الخامس:

هو أن نحرص على ألا نتوقع أحداثاً بعينها أو تفاصيل بذاتها، فمثل هذه المحاولة مضيعة للوقت والجهد. حسبنا بعد التجرد والدراسة أن ننجح في توقع اتجاه دون اتجاه أو نزعة دون نزعة، أو سياسة عامة دون أخرى.

و بعد.. حظاً سعيداً.. مع توقعاتك القادمة..!

عن الرشوقراطية

في جميع بلاد العالم، وفي البلاد المتخلفة على وجه الخصوص، توجد داخل الطبقة البيروقراطية طبقة أخرى يختلف حجمها باختلاف الظروف والاغراءات والروادع هي طبقة الرشوقراطية التي تضم الموظفين الذين طوّروا أخذ الرشوة الى فن معقد رفيع.

ولهذه الطبقة. وعلى اختلاف الأوضاع والبلاد، ملامح واحدة.

* الرشوقراطي في العادة، نتيجة لما يمارسه من فساد، ثري ينعم بمستوى عال من المعيشة، من الرشوقراطيين، من تتجاوز فواتير الكهرباء في منزله راتبه الرسمي بأكمله، بالاضافة الى ما يملكه من الأراضي والبيوت وحسابات البنوك، ومنهم من يملك ما لا يستطيع أن يحصيه.

* والروشوقراطي في العادة شديد الذكاء. ومنذ قرون شكا عمر بن الخطاب رضي الله عنه من قوة الخائن وعجز الأمين. وذكاء الرشوقراطي هو الذي يمكنه لا من البقاء حيث هو وانما من التدرج الى وظائف أعلى فأعلى،وذكاؤه هو الذي يمكنه من أن يظل فوق الشبهة، أو على الأقل بعيداً عن طائلة الأنظمة.

* والرشوقراطي في العادة شديد النشاط، بل ان من الرشوقراطيين من ينجح في بناء سمعة طيبة كاداري ممتاز لا يمكن الاستغناء عنه. ونشاط الرشوقراطي يجذب اليه صلاحيات أكبر فأكبر كان من الممكن لولا نشاطه أن تنصرف الى موظفين آخرين كما أن نشاطه يمكنه من القيام بكافة واجباته الرسمية علاوة على نشاطاته الرشوقراطية الخاصة.

* والرشوقراطي في العادة كثير الحديث عن المبادئ والاصلاح. وهو يتبع سياسة (الهجوم أفضل دفاع) فلا يضمه مجلس الا وتحدث عن الفساد وضرورة التطهير، وعدد الكثير من معدومي الضمائر.

* والرشوقراطي في العادة، وللأسف الشديد الشديد، يتمتع باحترام الناس. وهل من المستغرب أن يحظى شخص ثري ذكي نشيط دائم الحديث عن الاصلاح بالاحترام والتقدير؟.

* والرشوقراطيون ينجحون بطرق مختلفة في التعايش مع أنفسهم. اذا كان الرشوقراطي ينتمي الى بلد غني أقنع نفسه ان ما يأخذه قطرة من بحر لا تقدم ولا تؤخر. واذا كان ينتمي الى بلد فقير صور لنفسه ان ما يأخذه ليس سوى حق مشروع له مقابل ما قدم للبلاد من خدمات لا تقدر بثمن. ومن الرشوقراطيين من يقنع نفسه بأنه يحسن أوضاعه دون اضرار بالمصلحة العامة على اعتبار ان ما يتقاضاه مأخوذ من أرباح المقاولين لا من ميزانية الدولة. ومنهم من يعمى عن المشكلة الأخلاقية تماماً و يتصرف كما لو كان قبول الرشوة أمراً طبيعياً كشرب الماء والأكل والتنفس.

ولكن الروشوقراطي رغم هذا كله لا يعرف السعادة:

* لا يستطيع الرشوقراطي أن يسعد بثروته. فهو من ناحية مضطر الى ستر الجزء الأعظم من ماله. بل ان بعض الرشوقراطيين يدعون ضيق ذات اليد بطريقة مبتذلة بذيئة يأنف منها أشد الناس فقراً وهو من ناحية أخرى، مشغول بجمع المال عن الاستمتاع بانفاقه.

* والرشوقراطي لا يستطيع أن يسعد بذكائه. فهذا الذكاء مشغول باستنباط طرق جديدة من طرق الرشوقراطية أو بحماية صاحبه من الانكشاف دون أن يترك له المجال ليبدع، أو ليحقق هدفاً سامياً يتجاوز الذات.

* والرشوقراطي لا يسعد بنشاطه الذي يتحول الى لعنة عليه لا تدع له دقيقة للاسترخاء ـــ والرشوقراطي في العادة متوتر الأعصاب ـــ ولا تدع له وقتاً يقضيه مع عائلته وأولاده.

٭ والرشوقراطي لا يستطيع أن يسعد بحديثه عن المبادئ والاصلاح. لهذا الحديث رنة خداع تقرع سمعة قبل أن تقرع آذان المستمعين. حديث الرشوقراطي عن المبادئ كعزف العود ذي الأوتار المقطعة.

٭ والرشوقراطي لا يسعد باحترام الناس. فهو يدرك ان الاحترام موجه الى مركزه قبل أن يكون موجهاً الى شخصه. وهو يدرك انه لا يستحق الاحترام. وهو ينسحق بتفاهته عندما تلتقي عيناه بعيني موظف آخر تعرض للمغر يات فكان أكبر منها وآثر أن يعيش بجيب خال وصدر ملئ بالحب والثقة والايمان.

٭ يبحث الرشوقراطي في أعماقه عن زهور الرضى فلا يبصر الا أشواك الطمع، و ينقب في صدره عن لذة السكينة فلا يجد سوى جيشان القلق. يبحث عن حب كبير في قلبه فلا يجد الا عبودية ذليلة للدرهم والدينار. باختصار، يبحث الروشوقراطي عن السعادة فتستعصي عليه: لا سعادة الا باحترام الذات وكيف يستطيع الرشوقراطي أن يحترم نفسه وهو يدرك ان روحه، والروح أثمن ما لدى الانسان، مطروحة في المزاد كأي قطعة أثاث قديم مستعمل.

قدر الرشوقراطي في الدنيا أن يبقى مخادعاً قلقاً جشعاً يجري وراء سراب المال الحرام دون أن يعرف للسعادة الحقيقية طعماً، أما في الآخرة حيث لا توجد رشوة ولا مرتشون ولا وسطاء، فالمصير الذي ينتظر الرشوقراطي أشد ظلاماً من ضميره وهو يعد مصيراً عادلاً يتناسب وفداحة استهتاره بمسؤولياته نحو الله والوطن.



نظرات في القانون الدولي[1]

من العسير جداً، في وقت قصير كالوقت المخصص لهذا اللقاء، أن نلم بموضوع (القانون الدولي)، موضوع لا يشغل بال دارسيه فحسب بل يتعداه الى اهتمام الرجل العادي في كل مكان، موضوع يحتدم الخلاف حول طبيعته بين قوم قضوا أعمارهم في دراسته، موضوع علقت عليه البشرية أكثر من مرة آمالا كبيرة في عالم أفضل وعادت أكثر من مرة بخيبة أمل كبيرة يلهث وراءها أمل جديد.

لا أستطيع أن أعدكم إلا بجولة قصيرة في الموضوع، جولة قد لا تشفي غليلاً، وقد تخلف أسئلة أكثر من الأسئلة التي أجابت عليها. في هذه الجولة سنحاول أن نتتبع القانون الدولي عبر التاريخ ثم نقف فنبحث طبيعته ومشاكله الراهنة، ثم نحاول أن نتبين ما يخبئه المستقبل في دفته لهذا القانون. من هذا ترون اننا لسنا بصدد محاضرة ذات موضوع محدد تستقصيه وتلم بجوانبه كافة وانما بصدد نظرات متفرقة الى ماضي القانون الدولي وحاضره ومستقبله.

ان كان لا بد من البدء بتعريف فلنأخذ أبسط تعريفات القانون الدولي وأوجزها:

القانون الدولي هو «مجموعة القواعد القانونية التي تنظم العلاقات بين الدول».

يختلف القانون الدولي عن القانون الداخلي الذي يحكم شتى العلاقات داخل

---

(١) محاضرة القيت في معهد الادارة العامة بالرياض.

اقليم الدولة. ويختلف عن القانون الدولي الخاص، الذي يبحث مسائل تنازع القوانين والجنسية والوطن والذي يعتبر أساساً من فروع القانون الداخلي. كما يختلف عن الاخلاقية الدولية والمجاملة الدولية من حيث أن الأخذ بقواعد القانون الدولي ينتج من اقتناع الدول بالزامها بينما الأخذ بقاعدة أخلاقية لا يعني أكثر من التقيد بواجب أدبي، والأخذ بقاعدة من قواعد المجاملة أمر مرده الأول والأخير الى الذوق.

متى نشأ القانون الدولي؟ هنالك من يجيب بأنه ولد في أعماق التاريخ بقيام وحدات سياسية منفصلة وتبادلها العلاقات التجارية والسياسية مع غيرها. وهناك من يجيب بأنه لم ير النور الا في أوربا القرن السابع عشر ولم يشتد عوده الا مع ظهور مؤلف جروشس الشهير (في قانون الحرب والسلم) ولعل كلاً من الفريقين على حق: القائلون بالقدم يشيرون الى وجود نوع من الروابط القانونية في علاقات الدول القديمة، والقائلون بالجدة يعنون القانون الدولي بشكله المعاصر.

هناك مجال لظهور الروابط القانونية في العلاقات الدولية كلما تحقق شرطان:

أولاً: استعداد الوحدات السياسية لأن تعترف ببقية الوحدات كمساوية لها في المركز.

ثانياً: وجود اتصال كاف يسمح بتنظيم قانوني لبعض مظاهره.

لذلك نجد في القرن الرابع عشر قبل ميلاد المسيح معاهدات كتلك التي عقدها (رمسيس الثاني) أو تلك التي عقدها (سيبلوما)، ملك الحثيين. هذه المعاهدات لا تختلف كثيراً عن المعاهدات التي نعرفها اليوم وليس سوى أمثلة لمعاهدات كثيرة عقدتها الدول القديمة: معاهدات تحالف، أو حسن جوار، أو لتنظيم مسألة أو مسائل معينة.

غير ان لجوء الدول القديمة الى المعاهدات كان الاستثناء لا القاعدة اذ كانت تلك الدول تفضل الاحتكام الى السلاح.

يحدثنا البرفسور جورج شوارز نبرجر:

(ان اليهود شنوا كثيراً من حروبهم كحرب ابادة. وان دول المدنية الاغريقية لم تكن مستعدة لاقامة علاقات وثيقة الا فيما بينها أما بالنسبة للرومان فقد كان بقية العالم غير جدير ين الا بالضم الى العالم الروماني، أو بالخضوع للعمليات التأديبية البوليسية التي يقوم بها الرومان).

و يقول هارولد نيكلسون :

« وقد قام في وهم الرومان ان القدر يسير دفة أمورهم، محالفاً اياهم في سعيهم لفرض ارادتهم، وما يمارسون من تقاليد امبراطور يتهم الناشئة على الشعوب الأخرى، وان الواجب يدفعهم الى تحطيم كل من يتصدى لمقاومة أهوائهم».

و يقول أيضاً :

« وفيما كانت سلطة روما وثقتها بنفسها تزداد على مرور الأيام، طفق الرومان يعاملون البعثات الأجنبية الوافدة اليهم على درجات متفاوتة من المهانة والاحتقار والاستهزاء».

كان من الصعب مع وجود هذه النظرة، مع وجود ما يمكن أن نسميه مركب العظمة، لدى الدول القديمة أن تزدهر الروابط القانونية. ومع ذلك فقد عرفت الحضارة القديمة أنظمة عديدة من تلك الروابط. ولعل من الانصاف أن أشير هنا الى أن هذه الحضارات لم تلق نصيباً كافياً من الدراسات القانونية وان موضوع العلاقات الدولية بين الدول القديمة لا زال ينتظر مز يداً من الأبحاث.

أرجو أن تسمحوا لي بوقفة قصيرة عند الاسلام. لقد كتب المستشرقون الكثير عن العلاقات الدولية في الاسلام. هؤلاء المستشرقون كتبوا بحسن نية و بسوء نية، بفهم لروح التشر يع و بعدم فهم، بتجرد وبهوى. وكانت نتيجة سوء النية وعدم الفهم والهوى أن ساد الاعتقاد لدى كثير من غير المسلمين أن الحضارة الاسلامية لا تختلف عما سبقها من الحضارات، ان الاسلام دين دموي ينشر عقيدته بحد السيف ويخضع العالم عنوة

لتعاليمه، وان التقاليد الاسلامية في ادارة العلاقات الدولية في السلم والحرب لا تختلف عن التقاليد لدى مختلف الحضارات القديمة. ولقد تنبه الكتاب المسلمون الى هذه الناحية فألفت رسائل وأبحاث وكتب تناقش حجج المستشرقين وتقارن بين نظريات الاسلام في العلاقات الدولية والنظريات الحديثة وتلقي الضوء على سجل مشرف في احترام الروابط القانونية. ولعل من أحسن ما كتب في هذا الصدد المؤلف القيم عن (آثار الحرب في الفقه الاسلامي المقارن) للدكتور وهبة الزحيلي.

على انه لا بد من أن نشير قبل أن نغادر الموضوع الى اعلان الاسلام مبدأ المساواة بين الشعوب (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، ان أكرمكم عند الله أتقاكم). ولا بد أن نشير الى تركيز الاسلام على مبدأ الحرية الدينية (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين).. (أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين).. (لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي)، في هذه الآية الأخيرة يقول ابن تيمية:

(جمهور السلف على انها ليست منسوخة ولا مخصوصة، وانما النص عام فلا نكره احداً على الدين، والقتال لمن حاربنا فان أسلم عصم ماله ودمه، واذا لم يكن من أهل القتال لم نقتله. ولا يقدر أحد قط أن ينقل أن رسول الله أكره أحداً على الاسلام لا ممتنعاً ولا مقدوراً عليه)..

كما يقول ابن تيمية:

(وكانت سيرته صلى الله عليه وسلم ان كل من هادنه من الكفار لم يقاتله، وهذه كتب السير والحديث والتفسير والفقه والمغازي تنطق بهذا، وهذا متواتر من سنته، فهو لم يبدأ أحداً من الكفار بالقتال).

لا بد أن نشير الى تأكيد القرآن الكريم والسنة الشريفة على ضرورة احترام المواثيق والعهود. ولا بد أن نشير الى الأمثلة الرائعة لتأمين السفراء والرسل في الاسلام الى القواعد التي تستهدف انسانية الحرب ولعل خير ما يمثل هذه الروح وصية ابي بكر

الصديق لقائد جيوشه التي جاء فيها (لا تقتلن امرأة ولا صبياً ولا كبيراً هرماً ولا تعقرن شاة ولا بعيراً الا لمأكله، ولا تحرقن نخلاً ولا تفرقنه).

هذا عن الروابط القانونية في الزمن القديم أما القانون الدولي بشكله المعاصر فهو تطور أوربي وليد تجربة أوربية. كانت أوربا في القرون الوسطى خاضعة لنظام الاقطاع الذي يقف الامبراطور على قمة سلطته الزمنية بينما يقف البابا على قمة سلطته الدينية. في هذا النظام أستطاعت بعض الأقاليم الحصول على قدر كبير من الاستقلال ونشأت بينها بعض القواعد منذ القرنين الثاني عشر والثالث عشر. هذه القواعد تمثل بذور القانون الدولي المعاصر.

غير ان هذه البذور لم تنبت شجرة القانون الدولي الا بانهيار نظام الاقطاع ونشوء الدول الاقليمية، تلك الوحدات المستقلة تتمتع بسيادة مطلقة على اقليمها وتقوم على مبدأ المساواة مع غيرها، بنشوء وحدات منفصلة مستقلة سياسياً لا توجد بينها سلطة عليا ظهرت أسئلة عديدة حول علاقتها: ما حدود سلطة الدولة؟ ما وضع مواطني الدولة في الخارج؟ كيف تعامل سفن الدولة في الموانئ الأجنبية؟ كيف يمكن عقد معاهدات بين الدول؟ ما وضع الممثلين الدبلوماسيين الأجانب؟ كيف تبدأ الحروب وكيف تنتهي؟ ما قواعد التحكيم؟ هذه الأسئلة وكثير غيرها أخذت تبحث عن أجوبة. وجاءت الأجوبة على شكل القواعد القانونية التي نسميها القانون الدولي.

لقد مر القانون الدولي منذ نشأته حتى اليوم بتطورات عدة فقد ولد وليداً أوربياً يحكم علاقات دول أوربية تكون أسرة أوربية واحدة بل ان اسمه قبل أن تظهر تسميته الحالية كان (النظام العام لأوربا) لقد آمنت الدول الأوربية باشتراكها في تراث مسيحي واحد وانتمائها الى حضارة واحدة، وآمنت بضرورة قصر القانون الدولي عليها ولعل في التعريفات التي تقول ان القانون الدولي مجموعة القواعد القانونية التي أقرتها الدول المتمدنة أو (المتحضرة) ما يشير الى هذا الأصل.

غير ان الزمن دار. لم تعد الحضارة احتكاراً أوربياً، انتهى عهد التفوق الأوربي وأصبح الاستعمار أو يكاد، في ذمة التاريخ. أصبح القانون الدولي دولياً بالمعنى الصحيح. لم تعد صفة الأوربية والحضارة شرطاً لأن تصبح الدولة شخصاً من أشخاص

هذا القانون، بل أصبحت العبرة بالسيادة. كل دولة مستقلة ــ في الداخل والخارج ــ مؤهلة لأن تصبح عضواً في الأسرة الدولية الكبيرة التي ينبسط عليها جناح القانون الدولي.

ماذا عن وضع القانون الدولي اليوم؟ ماذا عن طبيعته؟ لم يصر البعض على انه قانون بالمعنى الدقيق بينما ينكر عليه آخرون هذه الصفة؟ لماذا يرى فيه البعض أمل البشرية في الخلاص من سياسة القوة والعدوان بينما يعتبره البعض جثة خامدة بلا حراك؟

ان الجواب على هذه الاسئلة يكمن في اختلاف القانون الدولي عن القوانين الداخلية التي نعرفها. القانون الدولي نوع بدائي من القوانين يشبه القوانين التي عرفتها المجتمعات القديمة مجتمعات ما قبل الحكومة. في الداخل هناك دولة، هناك سلطة عليا يضع جهازها التشريعي القوانين و يتولى جهازها القضائي تفسيرها وتطبيقها بينما تقع على عاتق جهازها التنفيذي مهمة تنفيذها. أما في النطاق الدولي فلا توجد دولة فوق الدول، لا توجد سلطة عليا أعلى من سلطات الدولة تضع القوانين وتفسرها وتطبقها على الدول. لنحاول أن نتصور الوضع في المجتمعات الداخلية لو لم توجد ادارة مركزية تناط بها مهمة التشريع وأخرى مهمة التطبيق وثالثة مهمة التنفيذ. معنى ذلك ان الأفراد يضعون القانون لأنفسهم، بأنفسهم يفسرونه لأنفسهم بأنفسهم، يطبقونه على أنفسهم بأنفسهم. لنتصور انك لا تستطيع أن تسوق خصمك الى المحكمة الا بارادته ثم لا تستطيع أن تنفذ الحكم الا بموافقته أو باستعمال قوتك اذا كنت أقوى منه. الوضع في القانون الدولي ليس بعيداً عن هذا الوضع : هناك لا مركزية في التشريع، ولا مركزية في التنفيذ.

من ناحية التشريع، الدول نفسها هي التي تضع القواعد القانونية التي تلتزم بها. هناك عدد قليل من القواعد تلتزم بها الدول سواء وافقت أم لم توافق. أما فيما عدا هذا العدد فلا تلتزم الدولة الا بالقواعد التي وافقت عليها هي اما صراحة عن طريق المعاهدات واما ضمنا عن طريق العرف. لذلك نجد مسائل في منتهى الأهمية كمسائل الجنسية والهجرة لا تنظمها قواعد دولية، لأن الدول لم تستطع، أو لم تشأ أن تتفق على

قواعد تحكمها. كذلك نجد اختلافاً كبيراً في نواح معينة كالمياه الاقليمية المتاخمة لاقليم الدولة والتي تمتد اليها سيادتها: دول تحدد بثلاثة أميال وأخرى بأربعة وأخرى بستة وأخرى بأثني عشر ميلاً. في مثل هذا الوضع لا بد أن ينتج كثير من الاضطرابات والغموض والتحكم.

لننتقل الى الجانب القضائي. لا يوجد هناك ما يجبر الدولة على أن تمثل أمام محكمة دولية. ورغم انشاء محكمة العدل الدولي الدائمة وخليفتها محكمة العدل الدولية كان تطوراً جديراً بالتقدير، الا ان اختصاص المحكمة بقي اختيارياً، بمعنى أن الدولة لها أن توافق على عرض النزاع أمام المحكمة ولها أن ترفض، فاذا رفضت لم يعد للمحكمة أي اختصاص بنظر النزاع.

لنفترض ان دولة وافقت على عرض نزاعها على المحكمة فان تنفيذ الحكم موكول لها. أي لها أن تنفذه ولها أن ترفض تنفيذه. اذا كانت الدولة التي صدر الحكم لصالحها قوية كان بامكانها أن تضغط على الدولة الضعيفة لتنفيذه. غير انه ليست هناك جهة مهمتها وواجبها تطبيق القانون وتنفيذ الأحكام بصورة تلقائية.

أرجو الا يعطيكم هذا التحليل صورة قاتمة عن الوضع القائم فالحقيقة هي ان الوضع الفعلي أحسن مما قد يوحي به التحليل السابق. الحقيقة ان أغلب قواعد القانون الدولي تحترم اليوم وكانت تحترم في الماضي، على الأقل في وقت السلم. يندر أن تقوم دولة بانتهاك الحصانات الدبلوماسية، أو الاعتداء على حقوق الأجانب في اقليمها أو مصادرة السفن الأجنبية التي تؤم موانئها. ذلك انه اذا كان لا يوجد ما يجبر الدولة على احترام القانون فهناك الحاجة المتبادلة الى احترامه، اذا ما خالفت دولة (أ) قاعدة معينة ازاء دولة (ب) فسيؤدي ذلك الى أن تخالف الأخيرة هذه القاعدة أيضاً.

هناك ايضاً توازن القوى، وما يواكبه من خوف من الانتقام يدفع الدولة الى تقيد بقواعد القانون حتى لا يؤدي خروجها الى تكتل مجموعة من الدول تفرض عليها التزام حدودها بالقوة.

ماذا عن مستقبل القانون الدولي؟ هل هو في طريقه نحو نهاية مؤلمة أم انه يستقبل فجراً جديداً من حياة حافلة؟ لا يوجد من يستطيع أن يحكم على المستقبل في

العلاقات الدولية فكثيراً ما ينطوي المستقبل على مفاجآت لم تخطر ــ ولا يمكن ان تخطر ــ ببال أحد لذلك فلن أحاول التنبؤ، بل سأقدم لكم صورة ذات وجهين: مضيء، ومظلم.. صورة قد تتغلب فيها خيوط النور فيعني ذلك ان القانون الدولي في طريقه الى غد جديد، وقد ينسحب عليها الظلام فيكون معنى ذلك ان القانون الدولي يسير نحو مصيره:

في الجانب المضئ من الصورة نجد:

أولا:

محاولة الدول ونجاحها في اقامة تعاون ثقافي وفني وتكنولوجي يتجلى في المنظمات الدولية التي نطلق عليها اسم الوكالات المتخصصة كمنظمة الصحة العالمية واليونسكو ومنظمة الأغذية والزراعة وعشرات غيرها.

ثانيا:

محاولة الدول أن تقيم منظمات عالمية كعصبة الأمم والأمم المتحدة، تستهدف منع العدوان والمحافظة على الأمن والسلام.

ثالثا:

نجاح كثير من الدول ــ الانجلوسكسونية والاسكندنافية مثلاً ــ في بناء علاقات فيما بينها تقوم أساساً على التعاون والتفاهم وحل جميع المنازعات بالطرق السلمية.

رابعاً:

ايمان الشعوب في كل مكان بالسلام، واستنكارها للدمار ودعاته وجميع مظاهره، وحرصها على الا يدمر حمق الانسان ما أبدعته عبقريته من حضارة.

أما في الجانب المظلم فنرى:

أولا:

ان عصبة الأمم والأمم المتحدة، فشلتا في قمع العدوان باستثناء حوادث متفرقة

اتفقت فيها مصالح الدول الكبرى، لأن الاعتبارات السياسية والمنافع الذاتية كانت تفوق اعتبارات القانون أو العدالة.

ثانيا :

ان الرعب الذري بدلاً من أن ينجح في القضاء على ما بين البشر من خلافات نجح في تغذية هذه الخلافات وزاد قوة الخوف وسوء الفهم.

ثالثا :

ان أسلحة الدمار الذري لم تعد حكراً لدولة أو دولتين، بل أصبحت تنتقل بين أيادي عدد من الدول بسرعة يصعب معها الاطمئنان الى توزان يمليه الهلع وتسيره الاطماع، و يتحكم في مصيره بشر فيهم ما في البشر من ضعف.

رابعا :

ان هذه الفترة الحرجة بدلاً من أن تشهد تحولاً من فكرة الوطنية الى فكرة العالمية أو الانسانية شهدت اتجاهاً مضاداً. بدلاً من أن تنسى كل دولة أهدافها ومطامعها ومصالحها الخاصة، أخذت الدول تزداد أنانية، حتى أصبح من الممكن القول ان كل دولة مستعدة لأن تدمر العالم اذا تعرضت مصالحها للخطر.

ان مستقبل القانون الدولي مرتبط بمستقبل السياسة الدولية، ومستقبل السياسة الدولية مرتبط بمستقبل الانسان. هل يستطيع هذا المخلوق الذي أودع الغريزة والحكمة، والاندفاع والتعقل، والهوى والبصيرة، هل يستطيع أن يبصر الخطر المحدق به؟ اذا عجز فمعنى ذلك استمرار النزاع، استمرار التسليح، استمرار التوتر، استمرار روح العداء، وكانت النهاية أفظع من أن تستطيع حتى أن تتخيلها. أم ان الانسان يستطيع أن يرتفع فوق أنانيته وفوق غرائزه وفوق مصالحه الوطنية فيحل السلام على الأرض؟ أدعو الله، وتدعونه معي أن يوفق مجهودات الانسان و يرشد خطاه الى مستقبل أفضل.. الى حياة بلا عدوان، ولا حروب، والى غد بلا مخاوف.

عن أشياء صغيرة!

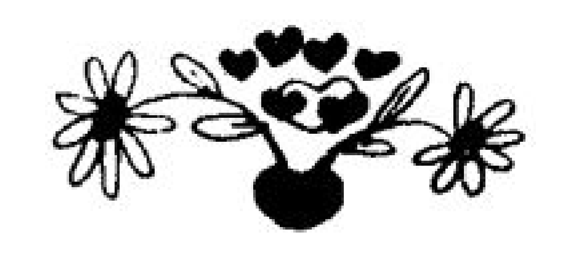
كلمات تحب

لا ليس كالربيع عطاؤك. للربيع مواعيد. وأيامك ــ كل أيامك ــ مواسم خصب ومهرجانات حصاد.

ولا ليس كالحياة حبك. تغيم الحياة وتشرق. وحبك كوجه الأمل. لا يعرف العبوس.

ولا ليست السعادة أعظم هداياك لي. أعظمها انك تعلمينني كل لحظة معنى أن اكون انساناً.

ولا لست كالنساء. لست كالنساء!



دعـــاء

اللهم اكفني شر نفسي، فهي تصور لي الطمع طموحاً والجبن حكمة والصدق تهوراً.

اللهم اكفني شر اصدقائي فأعينهم، وعليها غشاوة الحب، لا ترى في الا ما تريد أن تراه.

اللهم اكفني شر أعدائي فانهم يتعذبون بنعمك علي و يعذبونني معهم.

اللهم اكفني شر الناس فانهم يحتقرون الفاشلين و يبذلون أقصى جهدهم لتحطيم الناجحين.

اللهم ...

اللهم عرفني بنفسي معرفة تعصمني من الانخداع بالمديح والتراجع أمام الذم.

اللهم عرفني بالآخرين معرفة تمنعني من التطبيل لقوتهم والشماتة بضعفهم.

اللهم اجعل طموحي في خدمة الناس ولا تجعل الناس في خدمة طموحي!



الإنسان الصغير والكرسي الكبير

عندما يجلس انسان صغير على كرسي كبير يحس بالفراغ الشاسع فيحاول أن يملأه بالحركات المدروسة والايماءات المصطنعة و بالعبارات المطاطة الغامضة التي تعني كل شيء ولا شيء..ومع هذا يبقى الانسان الصغير صغيراً.

عندما يجلس انسان صغير على كرسي كبير ينتابه هلع شديد من أن يرتكب خطأ يؤدي الي قلعه من الكرسي فهو يفكر ألف مرة و يتردد ألف مرة و يتراجع ألف مرة قبل اتخاذ أبسط القرارات. يسلم الانسان الصغير من الخطأ و يتوقف العمل و يظل الكرسي الكبير ثابتاً و يظل الانسان الصغير صغيراً.

عندما يجلس انسان صغير على كرسي كبير يخاف أن يكتشف الناس الفرق المضحك بينه وبين الكرسي فيحتجب عن الناس ويختفي وراء المعاملات المعطلة و يتعامل مع الدنيا بأسرها عن طريق «التسلسل الاداري». يختفي الانسان الصغير عن الناس ولكنه يظل صغيراً.

عندما يجلس انسان صغير على كرسي كبير تعمى عيونه عن رؤية الأشخاص الحقيقيين فلا يرى من حوله سوى الكراسي فهو أبداً في حالة تزلف شديد للكراسي الأكبر واحتقار شديد للكراسي الأصغر. أما البشر، بعواطفهم وصداقاتهم وحراراتهم وأحزانهم، فلا مكان لهم في هذا العالم المسحور الذي تسكنه الكراسي.

عندما يجلس انسان صغير على كرسي كبير لا يطيق أن يرى حوله الا من هو أصغر منه وعلى كرسي أصغر من كرسيه. وشيئاً فشيئاً يرتحل الكبار وعلى عيونهم نظرة اشمئزاز و يتضاعف الأقزام بكراسيهم الصغيرة. يصبح صاحبنا أكبر المجموعة التي حوله يصبح كرسيه أكبر الكراسي ولكنه ـــ وا أسفاهـــ يبقى انساناً صغيراً.

الريـاض 

ايتها المدينة الصحراوية: يغسل الغبار شعرك، يدخل الرمل في أجفانك، تعبث الريح بملامحك حتى تمل، تغرز الشمس مساميرها في جبينك. وتبقين مع ذلك مليحة كامرأة بدائية، لم تعرف المساحيق، ولم توهب سوى فورة الحياة وعنفوانها.

و يأيتها المدينة الصحراوية: قاسية أنت قسوة الهجير، غامضة كسفرة الليل، جافة كالآبار القديمة، مترامية كالأساطير: وتبقين مع ذلك مثيرة مغرية معشوقة.

و يأيتها المدينة الصحراوية: ذكرتك حيث لا رمال ولا جفاف فاشتقت اليك!



أسلوب الملك فيصل
في السياسة الخارجية[1]

لم يكن الملك فيصل رحمه الله يحب الثناء في حياته ولا أعتقد اننا نحسن اليه والى ذكراه اذا ما حاولنا الثناء عليه بعد وفاته. وسأحاول أن يكون حديثي الليلة عن خصائصه كصانع قرارات في ميدان السياسة الخارجية واقعياً بقدر الامكان: أي انني سأحاول أن أصف هذه الخصائص كما أراها دون أن أزعم انها تفضل خصائص غيرها يتميز بها قادة آخرون ينتمون الى مدارس تختلف اختلافاً قليلاً أو كثيراً عن مدرسته. غير انني يجب أن أبادر الى القول انني لا أزعم انني أكتب تاريخاً: نحن جميعاً قريبون كل القرب من حياة فيصل الحافلة ووفاته الفاجعة بحيث يصعب علينا ان لم يستحل أن نقيم منجزاته تقييماً نهائياً.. وسيبقى الحكم الأخير على فيصل وعلى أمثاله من القادة والزعماء لأجيال التاريخ المتعاقبة بعد أن تزول عواطف الحب والبغض وزوابع الصداقة والعداوة التي ثارت خلال الفترات التي عاصروها وعندما يستطيع مؤرخو المستقبل أن ينظروا الى الأحداث، والازمات الماضية بتجرد وموضوعية كما ينظر الفلكيون اليوم الى الأجرام والكواكب في الفضاء.

حديثي اذن لا يستهدف أن يكون رثاء لفيصل أو تمجيداً له وهو في رحاب الله حيث لا يضره نقد ولا ينفعه تمجيد. غير انه في الوقت نفسه لا يدعي أن يكون دراسة موضوعية تاريخية وانما هو في حقيقته مجرد ملاحظات سريعة، عن أسلوبه في السياسة الخارجية استقيت بعضها مما كتب عنه، **معظمها** من متابعتي الأحداث، التي عاصرناها جميعاً، وبعضها من الذين عملوا معه عن كثب وألموا بطريقته في العمل.

---

(١) محاضرة في البرنامج الصيفي لطلبة الجامعات بأرامكو

والمجال المتاح للحديث الليلة أضيق لما يتسع لكافة ما يمكن أن يقال عن فيصل كصانع للسياسة الخارجية ولهذا كان لا بد من الاكتفاء بأربع من الصفات البارزة التي تميز بها، وهي على النحو التالي :

١ــ المركزية في صنع السياسة الخارجية.
٢ــ الاهتمام بآراء جهات الاختصاص.
٣ــ الصبر والثبات على الموقف.
٤ــ الواقعية.

أولاً المركزية في صنع السياسة الخارجية:

تشكو معظم الدول من تعداد الجهات التي تزاول نشاطات متعلقة بالسياسة الخارجية ومن تضارب المواقف التي تتخذها هذه الجهات. ولعل هذه المشكلة، تتضح أكثر مما تتضح في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث توجد حوالي خمسين جهة حكومية تساهم على نحو أو آخر في صنع السياسة الخارجية. ولعلكم جميعاً تعرفون انه في كثير من مناطق العالم تتخذ وزارة الخارجية الأمريكية سياسة وتتخذ وزارة الدفاع سياسة أخرى، تختلف قليلاً أو كثيراً عن السياسة الأولى وتتخذ أجهزة الاستخبارات موقفا ثالثاً. وقد ظهر هذا الخلاف على أشده في سياسة امريكا في الشرق الأقصى وبالذات في لاوس وفيتنام. والمشكلة التي تبدو واضحة بارزة في دولة عملاقة كالولايات المتحدة تبدو وبدرجات متراوحة في غيرها من الدول.

هذه المشكلة لم تعرفها المملكة بسبب الأسلوب المركزي في ادارة السياسة الخارجية الذي أتبعه الملك فيصل. لم يكن للسياسة الخارجية سوى مصدر واحد هو الملك الذي كان يصدر كافة قرارات السياسة الخارجية كبيرها وصغيرها ولست بصدد تقييم مزايا الأسلوب المركزي أو عيوبه ومقارنته بالأسلوب اللامركزي أو تعداد ما يراه انصار كل منهما. ولعل أكثركم على علم بما يسببه الأسلوب المركزي من بطء وتأخير أحياناً وما يسببه الأسلوب اللامركزي من تضارب وازدواجية أحياناً. يكفي هنا أن نقرر سياسة المملكة أنتهجب في عهد الملك فيصل الأسلوب المركزي في صنع السياسة الخارجية بحيث لم يكن أحد بحاجة الى التساؤل عن مصدر سياسية ما، ومدى توافقها مع

الخطط العريضة لسياسة الدولة وبحيث لم يحدث أبداً أن أتبعت جهة حكومية سياسة خارجية ما ، وأتخذت جهة أخرى سياسة ثانية مخالفة لها . ولقد كان هذا الأسلوب المركزي في إدارة دفة الشؤون الخارجية في رأيي نابعاً من عاملين أساسيين .

١ــ اتباع الملك فيصل للأسلوب المركزي في الحكم عموماً ، أي حتي فيما يتعلق بالشؤون الداخلية . وقد كان اتباع هذا الأسلوب يكلفه الكثير الكثير من الجهد والوقت والمتابعة ، و يتطلب منه التفاتاً يومياً مباشراً لشؤون الدولة وانضباطاً صارماً يندر أن يقدر عليه انسان سواء كان مسؤولاً أو شخصاً عادياً ، ولعل أكثركم لا يعرف انه خلال الاحدى عشرة سنة التي قضاها على العرش لم يتغيب عن مكتبه سوى يومين تحت وطأة الحمى وانه لم يسمح لأي ألم أو مرض أو ضيق أن يثنيه عن العمل . وليس من المبالغة أن نقول:انه لم يعرف الاجازة طيلة عهده فقد كان يعمل أيام الجمع ، وكان يعمل أثناء الأعياد وكان يعمل أثناء سفراته الرسمية والخاصة في الخارج . ولقد كان بامكانه دون ريب أن يخفف عن نفسه بعض هذا العناء و يعطيها قسطاً من الراحة لولا ايمانه بأن واجبه كان يقتضي منه الاطلاع على كل التفاصيل التي كان يطلع عليها

٢ــ اهتمام الملك فيصل الخاص بالسياسة الخارجية . لقد بدأت علاقة فيصل بالعالم الخارجي برحلة عالمية قام بها وهو دون الخامسة عشرة وتأكدت بتوليه وزارة الخارجية وهو دون الثلاثين ورسخت بمعاصرته أحداث القرن الكبرى من الحرب العالمية الأولى وما تبعها في فترة ما بين الحربين الى الحرب العالمية الثانية ونشأة الأمم المتحدة الى معاصرة كافة قضايا الشرق الأوسط وفي مقدمتها قضية فلسطين . لقد كانت السياسة الخارجية موضوعاً أثيراً الى قلب فيصل محبباً لديه ولعل هذا هو مايفسر لنا احتفاظه بمنصب وزير الخارجية فترة تزيد عن الثلاثين عاماً حتى بعد توليه العرش .

من هذين العاملين ، نبعت رغبته في الاشراف المباشر على الشؤون الخارجية والمتابعة اليومية لها . ولقد كانت نتيجة هذا الانغماس الشخصي حصيلة هائلة من التجارب وعلاقات شخصية واسعة مع كافة قادة العالم البارزين خلال أربعين عاماً ولهذا لم يكن من الغريب بأن يوصف قبل وفاته بأنه كان من أكثر قادة العالم خبرة بالشؤون الخارجية ، ان لم يكن أكثرهم خبرة على الاطلاق .

ثانياً ــ الاهتمام بآراء جهات الاختصاص : ــ

لم تكن قرارات الملك فيصل قرارات فردية، تتخذ طبقاً لاعتبارات المزاج أو الاجتهاد الشخصي. ان الذي يدرس قرارات الملك فيصل يجد أن الغالبية الساحقة منها لم تكن مبادرات شخصية بل كانت موافقة على **توصية** أعدتها جهة ما. ان ما ذكرناه قبل قليل عن الأسلوب المركزي لا يعني أن الملك كان يقرر في كل قضية كما يتراءى له بل كان يبدأ بطلب رأي جهة الاختصاص أولاً وقد يطلب من جهة ثانية استكمال المعلومات ثم لا يتخذ القرار الا اذا أيقن ان لديه كافة المعلومات والآراء الضرورية من كافة جهات الاختصاص..

ولقد كان المسؤولون في الدولة على علم بطريقة الملك في معالجة الأمور. لنفترض جدلاً. ان احد المواطنين تظلم الى الملك من تصرف إحدى الوزارات. كان الملك يبدأ بأن يطلب من الوزارة بأن توافيه بكافة ما لديها، حول هذا الموضوع. فاذا وصله الرد قارنه بما ورد بشكوى المتظلم. واذا راى أن المعلومات المتوفرة كافية لاتخاذ القرار أتخذ قراره والا طلب من الوزارة المزيد من المعلومات. وقد يحيل الموضوع الى جهة أخرى تتولى دراسته كديوان المظالم مثلاً أو يعهد به الى لجنة خاصة غير انه لم يكن على أية حال يتخذ قراره الا اذا تيقن ان الموضوع استكمل درساً وان كل جهة مختصة أبدت رأيها فيه..

من هنا نجد ان معظم القرارات المتعلقة بالشؤون الداخلية تأتي بمثابة موافقة على توصية من جهة درست موضوعا ما. وكذلك كان الأمر في الامور المتعلقة بالسياسة الخارجية.. ولعل أهم الجهات التي كانت تشارك مشاركة هامة في صنع السياسة الخارجية هي الجهات التالية: ــ

١ ــ اللجنة العليا: التي تتكون من عدد من كبار مسؤولي الدولة وقد كان الملك يحيل اليها كافة المسائل الأساسية في السياسة الخارجية، ولا سيما تلك المسائل التي تقرر مبدأ عاماً وتشكل منعطفاً جديداً لتتولى دراستها وتقديم التوصية بشأنها.

٢ ــ مجلس الوزراء: كان كثير من الأمور ذات العلاقة بالشؤون الخارجية

كالمعاهدات والاتفاقيات بشكل خاص تبحث وتدرس في مجلس الوزراء قبل أن يوافق عليها الملك.

٣ـ المجلس الاستشاري الأعلى للبترول: كانت كل الأمور المتعلقة بسياسة المملكة البترولية سواء فيما يتعلق بالانتاج أو الاسعار أو طلبات دول شراء البترول تحال الى المجلس الأعلى للبترول ليبحثها و يقدم رأيه حولها.

٤ـ مستشارو الملك: كان للملك فيصل أكثر من مستشار وكان يحيل اليهم العديد من الأمور المتعلقة بالسياسة الخارجية لابداء الرأي فيها.

٥ـ الجهات الحكومية ذات العلاقة: كانت كل مسألة تتعلق بالشؤون الخارجية تمس اختصاصات وزارة معينة غير وزارة الخارجية تحال الى تلك الوزارة لدراستها. فاذا كان الموضوع مثلاً متعلقاً بعقد تسليح كانت وزارة الدفاع هي الجهة المختصة. واذا كان الأمر يتعلق بمسائل الحدود أحيل الى وزارة الداخلية. واذا كانت المسألة تخص قرضاً دولياً أحيلت الى وزارة المالية... وهكذا..

ان هذا لا يعني ان الملك فيصل كان يوافق تلقائياً على كل ما يرد اليه من توصيات ولكنه يعني ان القرار لم يكن يتخذ الا بعد أن تبدي كل جهة رأيها فيه. ولعل هذا الحرص سبب في ان قرارات الملك كانت رغم تعددها تأتي بعيدة عن التهور والتسرع ومتسمة بالاتزان والاعتدال.

ثالثاً ـ الصبر والثبات على الموقف:

كان الملك فيصل يشتهر بالحلم والصبر الى درجة نادرة وكانت هذه صفة من أهم صفاته التي لا بد أن تؤخذ بعين الاعتبار عند دراسة سياساته سواء الداخلية منها أو الخارجية.

كان الملك فيصل يؤمن ان كثيراً من المشاكل يمكن أن تترك للزمن ليحلها دون تدخل أحد كما كان يؤمن ان عدم اتخاذ قرار على الاطلاق، أفضل من اتخاذ قرار

خاطئ وكان يؤمن ان تعجل النتائج يؤدي في معظم الأحيان الى أن تأتي هذه النتائج مخيبة للأمل. ولقد أنعكست هذه النظرة، التي قد يجوز لنا أن نسميها النفس الطويل، على سياسته الخارجية في النواحي التالية:ـ

١ـ الاصرار على الموقف الذي يقتنع به الى حد العناد بصرف النظر عن عنف المعارضة التي يلقاها ومن أمثلة ذلك موقفه من مشكلة اليمن وموقفه من دعوة التضامن الاسلامي واقتناعه طيلة حياته ان الصهيونية والشيوعية ليستا سوى وجهين مختلفين لعملة واحدة.

٢ـ عدم اتخاذ أي قرارات انفعالية أو بتأثير أزمة عابرة والبعد عن الأسلوب الاستفزازي وعدم التأثر باستفزازات الآخرين.

٣ـ اعتقاده الجازم ان أي انجاز في السياسة الخارجية يتطلب الكثير من الاعداد والدراسة والعمل الهادئ عبر مدة طويلة ولهذا لم يكن من هواة المفاجآت في العلاقات الدولية ولم يكن يعتقد ان بالامكان تحقيق هدف كبير كاتحاد دولتين بين عشية وضحاها وبمجرد توفر الرغبة في تحقيق الهدف.

باختصار كان فيصل يؤمن ان المهم هو أن تسير على الطريق الصحيح أما موعد الوصول الى الهدف وهل يتحقق غداً أو بعد غد فيأتي في الدرجة الثانية من الأهمية؟

رابعاًـ الواقعية:

لقد أجلت الحديث عن هذه الصفة لا لأنها تقل أهمية عن بقية الصفات بل على العكس لأنها ربما كانت أهم الصفات على الاطلاق.. لقد كانت أهداف فيصل نابعة من قيم اسلامية مثالية الا ان مثاليته لم تكن مثالية ساذجة ولا مبالغة في التفاؤل. لقد ادت تجارب الملك الطويلة واختلاطه بمختلف فئات البشر وأنواعهم وتكشف مختلف جوانب الطبيعة البشرية أمامه ومعاصرته لكثير من الأحداث الكبرى التي أدت الى تبنيه نظرة واقعية تدرك حدود العمل السياسي، وتدرك الضعف المتأصل في الطبيعة

البشرية، وتعرف ان هناك دائما هوة تفصل بين الواقع والأمل، بين ما يجب أن يكون وما هو كائن بالفعل.

لقد أنعكست هذه الواقعية في نواحٍ مختلفة من سياسته الخارجية.. من أهمها النواحي التالية:

١ــ التقييم الدقيق لامكانيات الدولة:

كان الملك فيصل يؤمن ان على كل دولة أن تختار أهدافها في ضوء إمكانياتهاوان أي دولة تحاول تحقيق أهداف أكبر من مقدراتها لا بد وأن تصادف الفشل في النهاية مهما حققت من نجاح وقتي ولعل هذه الناحية كانت من أهم نقط الخلاف بينه وبين بعض دول المعسكر الثوري في العالم العربي

٢ــ رفض البحث عن دور قيادي:

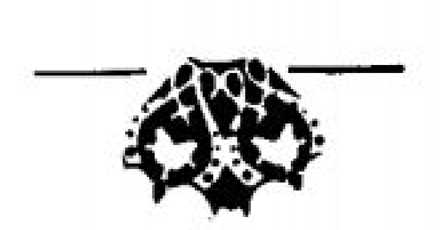
كان طموح الملك في السياسة الخارجية يكاد يقتصر على تهيئة الجو المناسب لنمو الدولة في الداخل ولم يكن يهمه أن تتولى المملكة أو يتولى هو شخصياً دوراً قيادياً بارزاً. ولهذا فقد كان يبتعد عن أية مبادرات قد تفسر على انها محاولة للوصول الى القيادة كما كان يفضل أن يتم عمله بعيداً عن الأضواء وهاتان صفتان تتناقضان مع الرغبة في الزعامة. ان الظروف وحدها هي التي أجبرت فيصل في السنوات الأخيرة من حياته أن يتقبل على مضض دور القيادة سواء أكان ذلك فيما يتعلق بالبترول أو بالسياسة العربية بوجه عام. لم يكن فيصل حريصاً على الدور القيادي ولا فرحاً به بل انه حاول جهده أن يتجنبه وعندما اضطر الى قبوله كعبء ثقيل ومسؤولية كبيرة تتطلب المزيد من الجهد والعمل.

٣ــ رفض التأثر بعواطف الجماهير:

كان الملك فيصل يؤمن بأن السياسة الخارجية فن صعب يحتاج الى الكثير من الموهبة والاعداد والتدريب ولا يجب أن يمارسه الا من كان لديه الاستعداد الذهني والنفسي لذلك. كان يرى ان السياسة الخارجية تتطلب الكثير من ضبط النفس والكثير من الحذر والتفرقة الدقيقة بين المصالح الحقيقية وبين عواطف الساعة وكان يرى ان هذه

السياسة يجب أن تدور في جو من العمل الدبلوماسي الهادئ لا في اطار عواطف الجماهير المشحونة القائمة على الهوى والاندفاع. ولهذا فاننا اذا أستعرضنا سياسته الخارجية نجده يتجنب أن يتخذ موقفاً ما لمجرد ارضاء الجماهير. والذين عاصروا الملك فيصل يروون عدة قصص عن هذا الجانب من جوانب شخصيته. من هذه القصص رفضه في عام ١٩٦٧م أن يعلن حظر البترول أثناء القاء خطاب أمام الجماهير رغم ان هذا القرار كان قد أتخذ بالفعل ومنها أيضا أنه أثناء حظر البترول عام١٩٧٣م أبدى أمام أكثر من زائر أجنبي استعداده واستعداد بلاده للعودة الى سكنى الخيام وأكل التمر اذا أحوج الأمر دون أن يرى من الحكمة أن يقول هذا علناً لئلا يلهب عواطف الجماهير ومنها ان الجماهير المحتشدة في شوارع الخرطوم صيف ١٩٦٧م كانت تطالب بقطع البترول وفي أثناء المؤتمر أعلن الملك عن دعمه السخي لدول المواجهة. وكان هذا الاعلان مفاجأة لهذه الدول نفسها. وكان أن قرر المؤتمر ان من الأجدى أن يستمر ضخ البترول و يستمر الدعم وكان بعد ذلك أن تغيرت عواطف الجماهير كلية.

هذه لمحة سريعة عن صفات الملك فيصل كصانع قرارات في السياسة الخارجية اجتمعت لتكون طابعاً متميزاً أعجب به البعض أيما اعجاب وأنتقده البعض مر الانتقاد ولكن أخيراً لم ينكر انه شكل مدرسة قائمة بذاتها ونهجاً متميزاً في ادارة الشؤون الخارجية.



عن فلسفة التعليم الجامعي

يمكن أن نطرح هذه القضية على هيئة ثلاثة أسئلة ــ

ــ لمن نفتح أبواب الجامعة ؟

ــ وما هو الهدف من التعليم الجامعي ؟

ــ وما هو دور الجامعة في المجتمع ؟

السؤال الأول يثير مشكلة بالغة الأهمية يجب أن نجيب عليها بصراحة وشجاعة . يرى البعض أن لكل من يحمل الشهادة الثانوية الحق في أن ينتظم في الجامعة ، وقد أخذت بعض الدول العربية بهذا المبدأ ففتحت أبواب الجامعة أمام جميع الراغبين في الدخول من منتظمين ومنتسبين وكانت النتيجة بعد سنوات أن أصيبت هذه البلاد بتضخم في الخريجين حتى أصبح العثور على وظيفة مشكلة رهيبة تواجه خريجي الجامعة ، وخاصة إذا كان قد درس في إحَدى الكليات النظرية . وانتهى الأمر في بعض البلاد بأن عمل خريجو الحقوق (عرضحالجية) وخريجو الجغرافيا مدرسين للغة العربية وخريجو الفلسفة والاجتماع كتاب صادر ووارد . ولدينا اليوم من يطالب باتباع نفس السياسة على أساس اننا نحتاج إلى جميع الكفاءات وعلى أساس ان التعليم حق للجميع وعلى أساس ان الشهادة تساعد الفرد على الحصول على مستوى المعيشة اللائق .

فلننظر إلى هذه الحجج : الحجة الأولى ، حاجتنا الى الكفاءات ، تردد بكل مناسبة وبلا فهم حتى لتكاد تصبح كليشيه تعني كل شيء ولا شيء . صحيح اننا بحاجة الى كفاءات ولكن الموضوع موضوع أولوية : أيها أشد حاجتنا الى الكهربائي الفني أم الى الاقتصادي ؟ الى العامل الماهر أو الى خبير النحو والقواعد ؟ إلى المرشد

الزراعي أم إلى المتخصص في علم السياسة؟ طبيعي ان الاجابة تختلف باختلاف الأفراد غير انني لا أتردد في القول اننا في هذه المرحلة من نمونا نحتاج الى العمال المهرة والفنيين أكثر من حاجتنا الى خبراء الاقتصاد والنحو والسياسة. الكفاءات التي نتعطش اليها هي الكفاءات العملية والفنية لا النظرية والأدبية.. بل انني أذهب أبعد من ذلك فأقول: اننا في هذه المرحلة نحتاج الى الممرضين والممرضات أكثر من حاجتنا الى الأطباء، والى العمال المهرة أكثر من المهندسين والى كتاب الآلة والمساحين أكثر من الاقتصاديين. ومن هنا نجد ان القول: بفتح أبواب الجامعة بحجة الحصول على كفاءات قول مرفوض رغم وجاهته الظاهرية كثير من خريجي الجامعات ليسوا من الكفاءات المطلوبة كثير من الكفاءات المطلوبة يمكن أن تدرب خارج الجامعة في المعاهد الصناعية والفنية.

أما الراي القائل بأن التعليم حق للجميع فصحيح بلا شك ولكن السؤال هو: أي نوع من التعليم؟ من حق كل فرد أن تتاح له فرصة التعليم الذي يتلاءم مع امكانياته ومواهبه وطاقاته ومع حاجات المجتمع وأولوياته. ليس هناك من يجادل في اننا لا نستطيع أن نسمح بدخول من يشاء الى كليتي الطب والهندسة (ولعل السبب في استثناء هاتين الكليتين هو خوف كل منا أن تلقي به الظروف في يد جراح من النوع الذي ينسى المبضع في بطن المريض أو مهندس من النوع الذي يقيم عمارات سرعان ما تعود الى قواعدها)، ومع هذا فانك تجد الكثيرين يصرون على أن تفتح بقية الكليات أبوابها للجميع وكأن دراسة العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية والانسانيات لا تحتاج الى مستوى عقلي معين ولا الى قدرة على الانضباط الفكري والتحصيل. والحقيقة هي ان التعليم الجامعي يحتاج الى ذهنية معينة لا تتوفر عند جميع خريجي الثانوية والاصرار على الحاق أولئك الذين يفتقرون الى هذه الذهنية بالجامعة لا يمكن أن يؤدي الا الى احدى نتيجتين: أن يجرب هؤلاء حظهم في الجامعة بلا جدوى ثم يفصلون بعد تجربة مريرة تملأهم باليأس والعقد أو ان نهبط بمستوى التعليم الجامعي حتى يستطيع الجميع التخرج. من الأشرف والأنفع للطالب الذي لم تهيئه مواهبه وقدراته للدراسة الجامعية أن يوجه الى التدريب الفني والمهني، وأن تتاح له الفرصة في مجال يتناسب مع امكانياته و يستطيع أن يجيد فيه و يبدع. بل ان من الأفضل ألا

ننتظر حتى نهاية المرحلة الثانوية لنوجه عدداً من الطلاب نحو التدريب المهني والصناعي.

بقيت الحجة الثالثة وهي القائلة بتسهيل الالتحاق بالجامعة على أساس ان الشهادة تساعد المرء على تحسين وضعه المادي والاجتماعي.. لا شك اننا كمجتمع ودولة نبالغ في تقدير الشهادة الجامعية الى درجة تدفع الشباب الى الاستماتة في الحصول عليها والانصراف عن التدريب المهني والفني. ولقد كنا ذات يوم ننتظر المعجزات على يد الخريجين وجاء الخريجون فاذا بنا نكتشف انهم لا يختلفون كثيراً عن رعيل العصاميين الأول ولا زالت المعجزات تنتظر من يحققها. ورغم خيبة الأمل هذه فقد بقيت عقدة الشهادة الجامعية وتضخمت حتى تصور حامل البكالوريوس انه ألم بكل شيء في ميدان تخصصه.. وتصور حامل الماجستير أنه أصبح من كبار العلماء في حقله أما حامل الدكتوراه فيفهم بطبيعة الحال في كل العلوم والفنون والآداب. أصبحت الشهادة هدفاً بدلاً من أن تكون وسيلة وخاتمة لكفاح بدلاً من أن تكون بداية له وأصبح حامل الشهادة يتوقع أن يقضي حياته كلها يجني ثمار هذه الشهادة. ولقد آن الأوان لنزيل عن الشهادات الجامعية بريقها، وننظر الى الشهادات الفنية والمهنية نظرة احترام وتقدير، ونكافئ حاملها مكافأة مادية لا تقل عن تلك التي يتلقاها زميله الجامعي وذلك أجدى للمجتمع من الاستمرار في تقديس الشهادة الجامعية واحتقارما سواها.

والنقطة الثانية التي تستحق الكثير من التأمل متصلة بهدف التعليم الجامعي. هناك من يعتقد أن هدف الجامعة هو تزويد الطالب بقدر معين من المعلومات على أن يتم التأكد من حصوله على هذا القدر عن طريق الامتحانات. والواقع انه لو كان هذا هو الهدف من التعليم الجامعي لكان لنا أن نعتبر التعليم الجامعي عندنا منافساً لأرقى النظم الجامعية العالمية ولما جاز لنا أن نطالب بتعديل أو اصلاح. ان هدف التعليم الجامعي في نظري ليس تزويد الطالب بالمعلومات ـــ ما أكثر المراجع والموسوعات والكتب المتضخمة بالمعلومات والأرقام ـــ بل تزويده بمهارة معينة في حقل تخصصه. لا يهم أن يلم دارس القانون بجميع القوانين والأنظمة ولكن المهم أن تتكون لديه خلال دراسته الملكة القانونية التي تمكنه من فهم القانون وتفسيره وتطبيقه. ولا يهم أن يستظهر

طالب الطب جميع الاصطلاحات الطبية اليونانية ولكن المهم أن تنمي لديه المهارةاللازمة التي تمكنه في المستقبل من تشخيص الأمراض ومن متابعة التطورات العلمية الحديثة في ميدان الطب. ولا يهم أن يحفظ طالب الاقتصاد الأرقام والميزانيات والاحصائيات وأسماء كبار الاقتصاديين بل المهم أن تكون لديه فكرة واضحة عن القوى والعوامل الاقتصادية وتفاعلها مع بعضها ومع المجتمع وقل مثل ذلك عن بقية التخصصات والدراسات.

والخلاف هنا ليس نظر ياً محضاً بل ان له آثاراً عملية هامة. لو كان الهدف مجرد تزو يد الطالب بالمعلومات لجاز لنا أن نملأ الفصل بمئات الطلبة ولما حق لنا أن نشترط انتظاماً ولا مواظبة ولا نتفت الحاجة الى البحوث النظر ية والميدانية. أما اذا كان الهدف هو اكساب الطلبة مهارة معينة فلا بد أن يبقى عدد الطلاب في كل فصل ضمن حدود تسمح بالمناقشة وتبادل الآراء ولا بد من الحضور والمواظبة ولا بد من الامتحانات الاسبوعية والشهر ية التي تقيس جد الطالب واجتهاده، لا المعلومات التي تلقاها فحسب، ولا بد من أن يكون البحث عنصراً رئيسياً هاماً في التدر يب الذي يتلقاه الطلبة.

بقي الحديث عن دور الجامعة في المجتمع. لقد ركزت جامعاتنا حتى الآن على مهمة تخر يج الطلبة وأهملت دور ين آخر ين هامين يجب أن تقوم بهما الجامعة: قيادة التقدم العلمي الفكري في البلاد والمساهمة الفعالة النشيطة في تحديث المجتمع وحل مشاكله. وواضح ان هذه النقطة مرتبطة بالنقطتين السابقتين:ـــ الجامعة التي لا تشترط أي مستوى ذهني في المتقدمين اليها والتي تكتفي بتقديم المعلومات لطلبتها ستهدر كل امكانياتهاـــ وهي امكانيات محدودة مهما بلغت في محاولة تعليم الأعداد المتضخمة المتدفقة عليها وسينصرف أعضاء هيئة التدر يس الى القاء المحاضرات وتصحيح الأوراق دون أن يترك لهم وقت للبحث العلمي أو المشاركة بالرأي في شؤون المجتمع. والوضع السليم يتطلب أن يخصص المدرس في الجامعة جزءاً من وقته للمحاضرات و يقضي الباقي في المكتبة أو العمل أو الوزارة. الوضع السليم هو أن يكون لكلية التجارة دور قيادي في البحوث الاقتصادية والادار ية و يكون لكلية الزراعة رأي في كل ما يتصل بشؤون الزراعة وهكذا. والوضع السليم هو أن يساهم اساتذة القانون

في الجامعة في مناقشة الأنظمة واعدادها ودراستها و يساهم أساتذة الاقتصاد في رسم الخطط الاقتصادية والمالية للدولة و يقود أساتذة الأدب الحركة الأدبية في البلاد. الجامعة ليست قوقعة محنطة تعيش في عزلتها السعيدة وتغط في سباتها الأكاديمي الثقيل. الجامعة جزء حي من المجتمع الذي انشأها وأغدق عليها الأموال وارتباطها بالمجتمع يفرض عليها أن تخدمه خدمة تتجاوز التدريس والتصحيح والترسيب والتنجيح.

هناك باختصار فلسفتان للتعليم الجامعي: (الفلسفة الأولى) وهي التي تأخذ بها كثير من الدول العربية الشقيقة، تقوم على قبول جميع خريجي الثانوية وعلى تلقينهم المعلومات بطريقة آلية تعتمد على الاستظهار النابع من الخوف من الامتحانات السنوية الرهيبة وعلى التركيز على التدريس واهمال البحث العلمي واغفال المشاركة الجادة في حياة المجتمع. (والفلسفة الثانية) وهي التي تأخذ بها كثير من الدول المتقدمة، وتقوم على قبول عدد محدود من الطلاب المتفوقين ــ مع توجيه البقية نحو التدريب الفني والمهني الصناعي وعلى احاطة الطالب بظروف مثالية، في كل ما يتعلق بالفصول والمكتبة والأساتذة، تمكنه من الحصول على المهارات والملكات اللازمة لحقل تخصصه، وعلى قيادة الحركة الفكرية والعلمية في البلاد والمساهمة النشطة في شتى وجوه الحياة الاجتماعية. وهذه الفلسفة الثانية هي التي أدعو الى اعتناقها في بلدنا خاصة وان الجامعة لا تزال في بداية الطريق واننا كبلد ناشئ لا نزال قادرين على أن نبحث عن الافضل والأحسن في كل مجال.



رسالة مفتوحة
الى الدكتور هنري كيسنجر

يامعالي الوزير: لا أظن انك تتذكرني. عندما التقينا في هارفرد في صيف ١٩٦٧م كنت أنت، حتى قبل الوزارة والمجد والقوة، شخصية كبيرة، خبيراً مرموقاً في الشؤون الدولية تحرص الحكومات قبل الأفراد على الاستنارة بآرائه والاستفادة من مشورته. وكنت أنا، ولا أزال، مجرد اسم بين الأسماء عابر بين العابرين، وجه في الزحام. والشخصيات الكبيرة في العادة لا تتذكر الا الشخصيات الكبيرة مثلها، أما الأسماء العادية والعابرون العاديون والوجوه العادية فما أسرع ما تضيع في غمرة المواعيد الهامة والمسؤوليات الضخمة!

عندما التقينا كنت العربي الوحيد في ندوة هارفرد الدولية وكنت حريصاً كل الحرص على أن أستمع الى آرائك في مشكلة فلسطين وكم كانت دهشتي عظيمة عندما استمعت الى هذه الآراء. لقد تحدثت عن الدول الصغري واهتماماتها المحلية والدول الكبرى واهتماماتها العالمية وضربت مشكلة فلسطين مثلاً للاهتمامات المحلية، نظرت الى الشرق الأوسط من منظار الحرب الباردة ومن زاوية الاستراتيجية الدولية لا أقل ولا أكثر. وكدت تعلن ارتياحك لنتائج حرب حزيران باعتبار ان هذه الحرب «أدبت» بعض الدول العربية التي شقت عصا الطاعة على الولايات المتحدة واتجهت نحو الكتلة الشرقية. وفي حديثك كله لم يرد ذكر للخيام ولا للاجئين ولا للحقوق العربية.

وعندما جاء دوري في التعليق تحدثت بصراحة أستمددتها من صراحتك. قلت اني لا أكاد أصدق ان خبيراً بارزاً ومؤلفاً من أشهر مؤلفي العلاقات الدولية ينظر الى القضية من هذه الزاوية المحدودة قلت: ان المشكلة ليست مشكلة حرب ساخنة أو باردة بين الغرب والشرق ولكنها مشكلة شعب عربي سلبت حقوقه. ولم أنس أن

اشكرك على تواضعك العلمي الذي جعلك تقول في بداية حديثك انك لا تعتبر نفسك خبيراً بمنطقة الشرق الأوسط وان معلوماتك عن المنطقة لا تكاد تتجاوز معلومات الرجل العادي.. شكرتك يومها على تواضعك وتمنيت ولا أزال أتمنى، لو تمتع بهذا التواضع ملايين «الخبراء في كل شيء» الذين يعج بهم عالمنا العربي. وباستمرار النقاش في جلسات الندوة تبينت ان منطلقك الأساسي في النظرة الى الشرق الأوسط، منطلق الحرب الباردة. لم يستطع أن يفقدك ما أشتهرت به من موضوعية في التحليل دفعتنا الى أن نسميك «الكومبيتر» قلت ان مصر لن تفكر على الاطلاق في الهجوم وان اسرائيل لم تكن في خطر محدق. قلت ان العرب لن ينسوا هذه الهزيمة وانهم سيعيدون الكرة وان الفارق التكنولوجي بينهم وبين اسرائيل سيتلاشى مع الأيام. وقلت انه لاسبيل أمام اسرائيل لوقف الزحف العربي في المستقبل سوى استخدام الأسحلة الذرية. وقلت: ان على اسرائيل أن تثبت، وقد أنتصرت عسكرياً حسن نيتها فتعرض على العرب تسوية سخية للغاية. وقلت ان اسرائيل لم تطلب منك النصح ولكنها لو طلبت ذلك فلن تقدم لها سوى هذه النصيحة

وشيئاً فشيئاً بدأنا نكتشف فيك الجوانب التي جعلت العالم كله يتحدث عنك هذه الأيام. اكتشفنا الطاقة الهائلة التي كانت تدفعك، حتى قبل الشهرة والوزارة، من ركن الى ركن في الأرض والتي كانت تجعلك منهمكاً في عشرات المشاريع في وقت واحد. اكتشفنا الذكاء الذي يستطيع أن يخترق كل التفاصيل والمظاهر ويتسلل الى قلب المشكلة. أكتشفنا روح الفكاهة تتجلى في الدعابات اللاذعة توجهها الى الآخرين حيناً والى نفسك أحياناً. واكتشفنا الصراحة الجارحة واللغة البعيدة كل البعد عن اللغة الدبلوماسية التقليدية التي يفهم منها قائلها ما يشاء ويفهم سامعها ما يشاء. واكتشفنا التواضع الذي حدا بك في أكثر من مناسبة الى أن تقول: انك تعرف المشكلة ولا تعرف حلها، تعرف السؤال ولا تعرف الجواب. وفي هذه الأيام التي تشغل فيها تحركاتك وتصريحاتك العالم بأسره، أعود بذاكرتي الى صيف ١٩٦٧م وأقول: لنفسي ربما كان هذا الرجل، حتى بعد أن نجرده من الهالات والأساطير، خير من يستطيع المساهمة في حل مشكلة الشرق الأوسط. أنت ياسيدي الرجل المناسب في المكان المناسب في الوقت المناسب.

أولاً، أنت الرجل المناسب لأن صفاتك الشخصية مطلوبة في هذه المرحلة

الحاسمة. الطاقة الهائلة ضرورية عند معالجة مشكلة عويصة عسيرة كالمشكلة التي تصديت لها. والذكاء ضروري فقد شبعت المنطقة من الرجال الأغبياء بمشاريعهم الغبية وتصريحاتهم الغبية. روح النكتة ضرورية لأن الشخص الذي يستطيع أن يضحك من نفسه شخص كبير والمنجزات الكبيرة لا تأتي الا من الكبار. والصراحة ضرورية فقد سئمنا العبارات الدبلوماسية والكلام المعسول والوعود العرقوبية. والتواضع ضروري فالرجل الذي يعرف حدود امكانياته قد يصل الى هدفه أما الرجل الذي يعتقد انه يعرف كل شيء ويستطيع عمل كل شيء فيقود نفسه والآخرين نحو الدمار.

ثانياً، أنت في المكان المناسب. أساتذة العلاقات الدولية لا يصنعون التاريخ ويكتفون بالوقوف على هوامشه محللين معلقين وناصحين، أما الذين يصنعون التاريخ فهم الساسة الذين أصبحت واحداً من أبرزهم. والدولة التي تدير دفة سياستها ليست أقوى دولة في العالم فحسب بل هي الدولة التي حاولت أن تكون الممثل والمخرج والمنتج في كل المسرحيات السياسية في الشرق الأوسط. واذا كنت، كأستاذ في هارفرد، لا تستطيع أن تنصح الاسرائيليين مالم يستنصحوك فأنت اليوم تستطيع أن تنصح من تشاء ويقع نصحك في الآذان كما تقع السيمفونيات في مسامع عشاقها.

ثالثاً، لقد ظهرت في المنطقة في الوقت المناسب. لم تعد كما كنت في سابق أيامك بطلاً من أبطال الحرب الباردة بل أصبحت مهندس الوفاق بين الكتلتين والمشرف على تنفيذه. لم يعد الموقف في الشرق الأوسط صراعاً بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي يدفعك، رغم كل شيء الى الوقوف مع الدولة التي تبنتك ورعتك ولكن الصراع، في نظرنا على الأقل، صراع بين معتد وضحاياه.

ولهذه الأسباب يعلق الكثيرون عليك الكثير من الآمال. يقول الامريكيون لأنفسهم: «وزير خارجيتنا العبقري سيفعلها مرة أخرى ويوافينا بالحل كما فعل في فيتنام». ويقول الروس لأنفسهم: «هذا الذي مد الجسور بين الرأسماليين والشيوعيين قادر على مد الجسور بين العرب والصهاينة». ويقول الاسرائيليون لأنفسهم: «انه يهودي قبل كل شيء ولن يفرض علينا حلاً نأباه». ويقول العرب لأنفسهم: «هذ اليهودي أقدر الناس على الضغط على اليهود وارغامهم على القبول بحل مناسب». ويبدو انك تشعر بعبء كل هذه التوقعات والآمال فها أنت ذا تجوب

المنطقة بنفسك المرة تلو المرة وتقفز من عاصمة الى أخرى وتولي المشكلة جل وقتك وكأنك، عن قصد أو غير قصد، ربطت بين مصير مشكلة الشرق الأوسط ومصيرك السياسي، وما هو أهم من هذا في نظر مصيرك في كتب التاريخ.

ولكني بعد أن قلت: هذا كله أخاف عليك من الفشل في الطريق المليء بالمخاطر والصعوبات. هناك بالذات منزلقات ثلاثة. أخشى عليك منها، منزلقات ثلاثة. لولا تمسكي بالتفاؤل في موقف يعبق بالتشاؤم لقلت: اني أراك تتجه اليها بسرعة دون أن يبدو عليك أنك تشعر بوجودها.

المنزلق الأول، يامعالي الوزير، هو أن تدور في دوامة التفاصيل والجزئيات وتنسى القضية الخطيرة الأولى: قضية شعب فلسطين. قالت لنا الصحافة العالمية قبل أسابيع، وصدقناها ان اتفاقية فك الارتباط على الجبهة المصرية كانت انتصاراً شخصياً كبيراً لك. وتقول لنا الصحافة العالمية هذه الأيام، ولا نكذبها، ان مساعيك قد تنتهي بفك ارتباط مماثل على الجبهة السورية. ولكن هذه الاتفاقيات الصغيرة بتفاصيلها وخرائطها ومشاكلها لا تكاد تمس سطح المشكلة. المشكلة ياسيدي اننا معشر العرب لا نعتبر اسرائيل دولة طبيعية لأنها لم تنبت من أرض المنطقة بل زرعت فيها كما تزرع فيها الحراب في الصدور. والمشكلة ان الأرض التي يعيش عليها الاسرائيليون ليست أرضاً موروثة ولا أرضاً مشتراه ولا أرضاً موهوبة ولكنها أرض مسروقة. والمشكلة ان اللاجئين لم يولدوا لاجئين ولكنهم ولدوا على أرضهم وفي بيوتهم و بين عائلاتهم ثم طردوا وشردوا وفقدوا كل شيئ سوى الايمان بعدالة قضيتهم. المشكلة ان اسرائيل لا تتعامل معنا سوى بلغة القوة والعنف وانها تعتقد انها بالمساومة على غنائم ١٩٦٧م تستطيع أن تنسينا ما حدث بين ١٩١٧م، و١٩٤٨م. والمشكلة ان اسرائيل تعتقد ان الأمر الواقع، الذي فرضته بمساعدة الفانتوم الامريكية والصداقة الامريكية والعواطف الامريكية سيبقى أمراً واقعاً الى الأبد. هذه هي المشكلة التي أرجو أن تظل بذاكرتك وأنت تنطلق بطائرتك عبر السماء حاملاً الخرائط والخبراء والدعابات والاتفاقيات الصغيرة.

والمنزلق الثاني، يامعالي الوزير، هو أن تحاول أن ترسم خريطة الشرق الأوسط على ضوء الاعتبارت المحلية الامريكية. اذا فعلت ذلك كنت كمن سبقك من مسؤولين أمريكيين لم ينعموا بما تنعم به من عبقرية فذة وحس تاريخي نادر وصفات فريدة. لقد تبنت الولايات المتحدة الحركة الصهيونية لاعتبارات محلية وأعترف تورمان

باسرائيل بعد ميلادها غير الشرعي بدقائق لاعتبارات محلية، وتدفق العون الامر يكي على اسرائيل طيلة هذه السنين لاعتبارات محلية، واليوم هناك اعتبارات محلية امر يكية جديدة. هناك الموقف الحرج الذي يحاصر الرئيس نيكسون من جراء فضيحة «ووترجيت» وهذا اعتبار يتطلب تسوية سريعة تجذب أنظار الشعب الامريكي الى المنطقة وتعيد شيئاً من الثقة الضائعة بالرئيس المحاصر. وهناك نقص موارد الطاقة في الولايات المتحدة وهذا اعتبار مهم آخر يدفعك الى البحث عن تسوية سريعة تضمن عودة البترول العربي الى الولايات المتحدة. كل هذه اعتبارت مهمة لا نلومك اذا حملتها مع حقائبك أني ذهبت ولكننا نرجو الا تنسى اعتباراتنا المحلية العربية. نرجو أن تأخذ بعين الاعتبار ان أمة عريقة أصيلة كالأمة العربية لا يمكن أن يفرض عليها حل ظالم حتى ولو كان مهندس الحل أذكى الأذكياء ونرجو أن تأخذ بعين الاعتبار ان الشعوب بما فيها الشعب الفلسطيني تبقى بعد أن يذهب وزراء الخارجية ورؤساء الجمهوريات وبعد أن تصبح طائرات الفانتوم أكواماً من الخردة. ونرجو أن تأخذ بعين الاعتبار أننا، في نواح عديدة، كالجمل الذي تعيّروننا به ولا ترون في بلادنا سواه، ننقاد للطفل الوديع بسهولة ولكننا لا نغتفر الاهانة طال الزمن أو قصر.

والمنزلق الثالث، وهو منزلق وقفت على حافته يامعالي الوزير أكثر من مرة، هو أن تلجأ في التعامل معنا الى التهديد ولغة العصا، لست في موقف يسمح لك، قانونياً أو أخلاقياً أو سياسياً بتهديدنا، قانونياً، لا يوجد في القانون الدولي نص يجبر دولة على أن تبيع لدولة أخرى ما تريده هذه الأخيرة، واذا قلت: ان هناك مثل هذا النص قلنا: لك بكل احترام: «بعنا اذن ياسيدي بضع قنابل ذرية أمريكية». أخلاقياً، لا يوجد ما يلزم الدولة ببيع منتجاتها الى كافة دول العالم، واذا قلت ان هناك مثل هذا الالتزام سألناك باحترام: «ولماذا اذن قاطعتم كوبا الصغيرة الضعيفة طوال هذه المدة؟». سياسيا، لا تستطيع الدول مهما حاولت أن تفصل بين التجارة والسياسة، واذا زعمت ان هذا بالامكان فهلا تلطفت وأخبرتنا لماذا لم تعتبر الشروط التي فرضت على الروس مقابل صفقة القمح «ابتزازاً؟».. وفوق هذا فالتهديد يجب أن يوجه الى الطرف الذي يستحق التهديد والا كنت كالقاضي الذي يدين القتيل البريء و يصفق لقاتله، كرجل البوليس الذي يصفع الطفل المعتدي عليه و يترك «الفتوة» الذي ضربه. ومن المشكوك فيه ان التهديد، بعد هذا كله، سينفع معنا. اتذكر ما قلته قبل قليل عن الجمل.؟

أتدري كم يصبر الجمل على الجوع والعطش ؟ أتدري منذ متى تركنا الفاقة والتمور والخيام؟ أما اذا كنت تعتقد ان التهديد جزء لا يتجزأ من الدبلوماسية فحاول أن تمارسه دون تحيز. دعنا نطرب بسماع صوتك وانت تسمي موقف اسرائيل «عدوانا» وغطرستها«تعنتاً» دعنا نطرب لصوتك يهدد اسرائيل «باعادة تقييم الولايات المتحدةلموقفها منها» أو بأن الولايات المتحدة قد تضطر الى اتخاذ «اجراءات معاكسة» إزاء التعنت الاسرائيلي.

هذه يامعالي الوزير قضيتنا ، وهذه مخاوفنا ، وهذه هي المنزلقات التي تتربص بك عبر أراضينا الشاسعة. وبعد، فليس لي سوى أن أتمنى لك التوفيق في مهمتك الصعبة.. نجاحك يعني ان اسمك سيبقى كما تطمح في كتب التاريخ وفشلك يعني ان اسمك سينضم الى بقية الفقاقيع التي ظهرت على أوجه الصحف والمجلات ثم ابتلعها النسيان. أما هذه الأمة فلا خوف عليها من الفشل لأنها ، يامعالي الوزير، تبقى ما بقي التاريخ .



هل للشعر مكان في القرن العشرين ؟

أود أن أبدأ بالرد على الذين يعتنقون رأيا متطرفاً حول مكان الشعر في القرن العشرين وهم فريقان. فريق يرى أن دولة الشعر دالت في هذا الزمان، زمان الصاروخ والمركبات الفضائية والعقول الألكترونية، وان مكان الدواوين الطبيعي في المتاحف التي يعلوها الغبار وان تذوق الشعر وانشاده وكتابته ظاهرة شاذة غير عملية في عصر لم يعد فيه مكان الا لما هو نافع وما هو عملي.

والرد على هذا الفريق أيسر من اليسير. وان استقراء الواقع الملموس المشاهد يؤكد أن الشعر لا زال يكتب والدواوين لا زالت تباع وان للشعر قراء وللشعراء جمهوراً سواء كان ذلك في الغرب أو في الشرق أو في الدول الآخذة بأسباب النمو في العالم الثالث. ومن هنا كان لنا أن نقول دون مكابرة ان الذين يبشرون بانقراض الشعر في هذا القرن يتبجحون بدعوى لا يقوم عليها برهان، بل يتبجحون بدعوى يكذبها ما أمامنا من براهين.

أما الفريق الثاني فيذهب في تطرفه عكس ما ذهب اليه الفريق الأول فيدعى للشعر حجماً أكبر من حجمه الحقيقي و يتصور للشاعر رسالة لا يمكن أن يقوم بها شاعر. وهذه المبالغة في دور الشعر تعود في رأيي الى سببين : أولهما ان مروجي هذه النظرية كثيراً ما يكونون من الشعراء أنفسهم ومن عادة المرء التي توشك أن تكون غريزة أن يبالغ في قيمة ما ينتج ، أو من نقاد الشعر فيرون في التعظيم من شأن ما ينقدون تعظيماً تلقائياً من شأنهم ، أو من الأدباء بوجه عام فيرون أن تضخيم دور الشعر تضخيم لدور الأدب ، ولدورهم هم .

و يعود السبب الثاني الى اعتقاد بعض أنصار النظرية بأن دور الشعر لا يتغير بتغير الزمان والمكان. يقول هؤلاء: لقد كان الشاعر في العصر الجاهلي لسان القبيلة وسيفها، وفي صدر الدعوة الاسلامية علم الدعوة وقلمها، وفي مختلف عصور التاريخ العربي، عاملاً مؤثراً يمدح فيرفع ويهجو فيضع و يدعو فيثير، فما بال شاعر اليوم لا يمارس دوراً كدور أسلافه أو أعظم من دور أسلافه ؟

وحقيقة الأمر ان الشعر وليد بيئة اجتماعية ثقافية سياسية اقتصادية معينة تنعكس عليه، شاء أم رفض، وتؤثر فيه أكثر من تأثرها به. وحقيقة الأمر ان بيئة القرن العشرين ترفض أن تعطي الشاعر ذلك الدور الكبير الذي تمتع به في بيئات سابقة. وتفصيل ذلك يطول وموجزه ان البيئات العربية الغابرة لم تعرف الاذاعة ولا التلفزيون ولا الصحف ولا المطابع ولا الأغاني، فكان الشاعر العربي يقوم بمفرده بما تقوم به هذه المؤسسات من أدوار. أما وقد تطور المجتمع وتعقدت منظماته وتعددت مؤسساته فان دور الشاعر انكمش وتقلص. وهذه ظاهرة يسر لها البعض و يتألم منها البعض ولكننا لا نملك ان كنا موضوعيين الا أن نعترف بوجودها.. ولنا الى هذا الموضوع عودة بعد قليل.

ان المبالغة في الانقاص من دور الشعر والمبالغة في تضخيم هذا الدور تعكس في رأيي تناقض الأمة العربية في نظرتها الى الشعر والشعراء. وقفت الأمة العربية خلال تاريخها موقفاً متأرجحاً مضطرباً من الشاعر: تجله وتحتقره في الوقت نفسه، تعجب بموهبته وتستهين بها تمدحه وتذمه. وانعكست هذه النظرة على الشعراء أنفسهم فاندفع بعضهم يقلل من قيمة الشعر أو يكتبه في السر وعلى استحياء أو يعتبره محنة ابتلي بها واندفع بعضهم الآخر والمتنبي على رأسهم يسرفون في اعتزازهم بأنفسهم وفخرهم بموهبتهم.

أود قبل أن أسترسل في تفصيل مكان الشعر في القرن العشرين أن أحدد موقفي من قضيتين أساسيتين أولاهما تتعلق بالمضمون والأخرى تتعلق بالشكل. القضية الأولى يلخصها هذا السؤال: هل يجوز أن نخرج من دائرة الشعر أشعاراً معينة لأسباب تتعلق بمضمون الشعر؟ والقضية الثانية يلخصها هذا السؤال: هل يجوز أن نخرج من دائرة الشعر أشعاراً معينة لأسباب تتعلق بشكل الشعر؟

ان القضية الأولى تثير موضوع الالتزام والبعد الاجتماعي للشعر. و يذهب أغلب النقاد والشراح الى تصنيف الشعراء الى صنفين رئيسيين : أولئك الذين يقولون الشعر للشعر، لا يطربون به سوى أنفسهم، ولا يستهدفون سوى النشوة الفنية المحضة، هؤلاء حسب التعبير الأكثر شيوعاً هم الرومانسيون. أما الفئة الثانية فتضم الشعراء الذين يقولون الشعر للناس. يستهدفون به دفع مجتمعاتهم الى الأفضل، و يستمدون روعة أشعارهم من عظمة مضامينها الاجتماعية وهؤلاء هم الواقعيون، ومن نافلة القول أن نضيف أن أكثر النقاد اليوم يصبون جام غضبهم على الرومانسيين المتقوقعين في ذواتهم، و يضفرون باقات المديح للواقعيين من الشعراء.

هذا التقسيم، ككل التقسيمات، يريح الدارسين والطلاب والقراء، ولكنه كمعظم التقسيمات يفتقر الى الدقة والموضوعية. بل ان هذا التقسيم بالذات من أكثر التقسيمات بعداً عن الدقة العلمية.

انني أقول انه لا يوجد شعر ذاتي بالمعنى الذي يذهب اليه هؤلاء النقاد : ذلك ان أي شعر حقيقي لا بد وأن ينبع من الذات ولكنه في الوقت نفسه لا بد أن يتجاوز حدود الذات. أما أن الشعر يجب أن ينبع من الذات فأمر لا أعتقد أن احداً يجادل فيه. الذات هي المنزل الذي تسكنه عواطف الشاعر وهي المصفاة التي تمر من خلالها تجاربه. لا أتصور شعراً دون الذات الا اذا تصورت كلاماً بشرياً دون حنجرة ولسان. أما ان كل شعر حقيقي يجب أن يتجاوز حدود الذات. فأمر أتصور انه يحتاج الى مزيد من التفصيل فلنحاول أن نستعرض أكثر أنواع الشعر ذاتية وسنجد ان أياً منها لا ينتهي عند الذات. شعر الغزل مثلاً، وهو المثل التقليدي للشعر الذاتي، يفترض وجود امرأة، أي وجود انسان آخر بجانب الشاعر. وما دام الشاعر قد خرج عن حدود ذاته فلا أعتقد ان من العدل أن نتشبث بمعيار عددي فنعتبره ذاتياً ما دام اهتمامه ينصب على انسان واحد ونعده واقعياً اذا تعددت محاور اهتمامه. شعر الطبيعة، وهو بدوره مثل تقليدي للشعر الذاتي، يقوم على أساس ألفة قوية بين الشاعر والطبيعة تخرج بدورها عن حدود الذات الضيقة. أشعار القلق واليأس والضياع والوحدة بدورها ليست أشعاراً ذاتية محضاً، فهي جميعاً تعبر عن علاقة بالآخرين فشلت لسبب من الأسباب فكان القلق وكان اليأس وكان الضياع أما القول بأنها لا تعبر الا عن مشكلة فردية فرأي متسرع

يغفل ان أي عاطفة انسانية لا تنمو الا في بيئة انسانية، وان البيئة الانسانية لا توجد الا حيث يوجد أكثر من انسان واحد.

ان محاولة الاصرار على ان كل شاعر إما أن يكون رومانسياً واما أن يكون واقعياً، اما أن يكون ذاتياً واما أن يكون اجتماعياً، والاصرار على اخراج احدى هاتين الفئتين من دائرة الشعر الحقيقي، بالاضافة الى عدم دقتها العلمية، أساءت الى الشعر العربي بقدر ما أساءت الى العمل السياسي العربي محاولة تصنيف الناس الى ثوريين ورجعيين ومناضلين وعملاء. وجاءت هذه الاساءة من عدة وجوه: أولاً: أقامت هوة بين شيوخ الشعراء، ومعظمهم يصنف في العادة من الرومانسيين، وبين شبابهم، ومعظمهم يعتبرون أنفسهم من الواقعيين، حرمت كل فريق من نعمة الاتصال بالفريق الآخر وتذوق ما لديه والاستفادة من تجربته. ثانياً: دفعت ببعض الشعراء الشباب دفعاً الى محاولة الكتابة في مواضيع بذاتها فجاءت تجاربهم فجة ضعيفة وكادت قصائدهم أن تكون نسخاً متكررة من بعضها البعض. ولعل أكبر كارثة جاء بها التصنيف هو أنه أقتنع بعض الناشئة القراء بأن الشعر الحقيقي لا يوجد الا في فترة تاريخية دون غيرها أو لدى شعراء معينين دون غيرهم، فكان هؤلاء الناشئة كمن يزور حديقة فلا يسمح له الا بشم بعض أزهارها دون البعض، أو من يطالع السماء في ليلة صافية فلا يسمح له أن يرى الا بعض نجومها وكواكبها.

أما القضية الثانية فتثير مسألة الهجوم العنيف المتواصل بين الذين يكتبون الشعر بشكله التقليدي والذين يكتبونه بشكله الحديث ولا شك عندي ان هذه الهوة بين الفريقين جنت بدورها على الشعر جناية لا تقل عن تلك التي شاهدناها عند الحديث عن الذاتيين وغير الذاتيين.

وحقيقة الأمر فيما أتصور ان كلاً من الفريقين مصيب في بعض ما يذهب اليه ومخطىء في بعض ما يدعيه. يصيب أنصار الشعر التقليدي عندما يقولون ان الأذن العربية تعودت عبر مئات من السنين على الأوزان التقليدية والقوافي. ويخطئون عندما يطلبون من الشعر العربي أن يبقى الى الأبد ضمن الاطر والقواعد التي قننها الخليل ابن

أحمد لا يتجاوزها قيد شعره. و يصيبون عندما يقولون ان كثيراً من قصائد الشعر الحديث المنشورة تتميز بالركاكة والسطحية. غير انهم يخطئون عندما يتجاهلون النماذج الرائعة التي أنتجها الشعر الحديث. و يصيبون عندما ينتقدون بعض الشعراء الشباب لجهلهم بتراث أمتهم الشعرى الخصب. ولكنهم يخطئون عندما يذهبون الى تمجيد تراثنا الشعري بحذافيره وكثير منه لا يعدو أن يكون نظماً سقيماً رغم انتظام أوزانه وقوافيه.

حتى اذا ما انتقلنا الى أنصار الشعر الحديث وجدناهم يصيبون حين يقولون: ان من حق شاعر هذا العصر أن يبحث عن أسلوب جديد للتعبير يختلف عن أساليب العصور الغابرة. غير انهم يخطئون اذا ما كتبوا بأسلوب منبت الصلة كلية بالأساليب المألوفة لا يكاد يتذوقه الا قائلوه. و يصيبون حين يقولون: ان التقيد بقافية واحدة وتفعيلة متكررة كثيراً ما يورط الشاعر في تعابير وكلمات لا تستهدف الا انتظام الوزن وتوفير القافية. غير انهم يخطئون عندما يتصورون ان الخروج على وحدة القافية. والتفعيلة المتكررة يحل مشاكلهم ذلك أنهم ينسون ان الابداع الفني صعب في كل الظروف و ينسون ان الشعر الحديث أصعب في كتابته من الشعر التقليدي. و يصيبون حين ينتقدون بعض السلبيات في شعرنا القديم كالاسراف في المديح أو الهجو البذيء أو التعلق الزائد بالصور اللفظية. غير انهم يخطئون اذا نسوا في غمرة حماسهم ان أسلافهم ولدوا في زمان غير زمانهم وفي ظل ظروف غير ظروفهم و باخلاق غير أخلاقهم و يبدو لي انه بعد أن ينجلي غبار المعركة وتهدأ أعصاب المتعاركين سيبقى الشعر العربي بشكله التقليدي سليماً معافى، و يبقى بجانبه شعر حديث يتحرر من وحدة القافية بعض الشيء، ولكنه يبقى وثيق الصلة بالشعر التقليدي تربطهما روابط الأخوة ووشائج العائلة الواحدة.

أما وقد أنتهيت الى ان الشعر شعر سواء كان مضمونه رومانسياً أو واقعياً، وان الشعر شعر سواء كتب بأسلوب تقليدي أو بأسلوب حديث، بقي أن نتساءل: ماذا يستطيع الشعر أن يقدم لانسان القرن العشرين؟

لعل من المناسب أن أبدأ بما يقدمه الشعر للشاعر نفسه. وهنا أقول: انني لا أعرف للشعر الا دوراً واحداً بدأ منذ قال: أول شاعر الشعر في أول لغة و يظل اليوم عند كل

شاعر في كل لغة الا وهو التعبير عن انفعالات الشاعر وعواطفه ومشاعره، أو كما نقول: اليوم تجاربه النفسية. هذه هي مهمة الشعر الأساسية وأي مهمة أخرى تضيفها ظروف الزمان والمكان لا تعدو أن تكون هامشاً على الأصل. الشاعر عندما يكتب الشعر يقوم بذلك بطريقة عفوية تلقائية. واذا كان هناك خلاف على بعض المواهب وهل تولد مع الانسان أم تكتسب بالخبرة والمران فانه لا شك عندي ان الشاعر يولد شاعراً قدره الذي لا اختيار له فيه، لم يطلب أحد من الشاعر أن يكون شاعراً ولم يطلب هو أن يكون شاعراً. ولعل الشاعر أجهل الناس بما يدور في أعماقه: لا يعرف لم كان شاعراً أو كيف كان شاعراً؟ ولا يعرف لماذا يكتب الشعر في حالات دون غيرها؟ ولا يعرف لماذا تتحول بعض تجاربه النفسية دون غيرها الى أعمال شعرية وتبقى تجارب أخرى أقوى وأعنف حبيسة في داخله ولعل هذه المجهولات والالغاز التي تكتنف العملية الشعرية هي التي دفعت اليونان القدماء الى تصوير حورية توحي للشعراء ودفع العرب في أساطيرهم الى تخيل شيطان لكل شاعر يقذف الشعر في لسانه. وهذه الصورة البدائية الاسطورية تعبير جميل عن اللغز المحيط بالعملية الشعرية.

ان الشعر باتاحته وسيلة التعبير الفني عن ما يعتلج في نفس الشاعر يحقق كل مهمته. قد يجلب الشعر للشاعر صيتاً طائراً وقد يخمل ذكراً كان من الممكن أن يكون نابها، قد ينفعه وقد يضره ولكن هذا كله لا علاقة له بجوهر المسألة وهو ان الشعر حقق وظيفته بالنسبة للشاعر عندما أتاح له أن يخاطب الناس شعراً.

هذا عن الشاعر نفسه، فماذا عن قارئ الشعر؟ قبل أن أبدأ الحديث عن هذا الموضوع أود أن أقول انني اعتقد ان الاسرار التي تحيط بكتابة الشعر تحيط بتذوق الشعر. نحن لا نستطيع أن نحلل بوضوح لماذا نحب شاعراً دون غيره أو قصيدة دون أخرى أو بيتاً بعينه؟ ان عملية التجاوب مع الشعر عملية عاطفية عفوية لا تنصاع للتحليل العلمي ومن العبث أن نحاول قياسها بميزان أو نحللها في مختبر.

يستطيع الشعر أن يقدم لانسان القرن العشرين ما يلي أولاً: يعطي الشعر قارئه متعة جمالية خالصة يستحيل تعريفها و يصعب وصفها وهي أشبه ما تكون بالمتعة التي نحسها جميعاً عندما نشم شذى وردة أو نستمع الى صوت جميل أو نرقب البدر في ليلة صافية.

ثانياً: يقيم الشعر ألفة انسانية بين الشاعر والقارئ فيحس القارئ ان الشاعر يتحدث بلسانه و يعبر عما في نفسه وفي هذا غناء لانسانية القارئ من جهة، وتمكين له من اعادة اكتشاف نفسه وفهم عواطفه من جهة أخرى.

ثالثاً: يربط الشعر قارئه بالتجربة الانسانية للبشر أجمعين ان الشاعر الحقيقي هو الذي يستطيع أن يحول تجربته الفردية الى موقف انساني، حبيبة الشاعر تصبح حبيبة كل انسان وألم الشاعر يصبح ألم كل انسان وهكذا يصبح القارىء جزءاً من التجربة الانسانية التي تحدث عنها الشاعر. ان هذه الرابطة الانسانية الخالدة تثبت لنا سطحية القول المنسوب الى أحد الزعماء الشيوعيين عندما بلغه ان شاعراً طبع عدداً كبيراً من ديوان غزلي «ولماذا لم يكتف بنسختين.. واحدة له، والأخرى لحبيبته ؟»

رابعاً: يستطيع الشعر في قصيدة قصيرة وأحياناً في بيت واحد أن يلخص شريحة نابضة من الحياة تحتاج القصة الى رواية كاملة لايضاحها ويحتاج علم النفس الى كتب عديدة لبيانها. انني استطيع تشبيه الشعر «بكبسولة» موسيقية مضغوطة تستطيع رغم صغرها أن تنقل القارىء الى عالم القوة يكاد يلخصها بأكملها بيت واحد للمتنبي:

والظلم من شيم النفوس فان تجد
ذا عفة فلعلة لا يظلم

خامساً: يفتح الشعرللقارىء نافذة من خيال يهرب فيها من رتابة الواقع فيذوق روعة الحب مع شاعر الغزل ويحس بعنف المعركة مع شاعر الحماسة وهو لم يبرح مقعده ولعلنا أحوج ما نكون الى نعمة الخيال في هذا العصر الذي كاد كل شيء فيه أن يخضع للرتابة الصارمة.

هذه هدايا الشعر لقارئه المتذوق لم تتغير عبر الأزمنة يعرفها كل من جربها و يستحيل أن نقنع بها من لم يجربها، وكيف نشرح لمن حرم نعمة السمع روعة السمفونية وصوت زخات المطر؟

لقد أجلت الحديث عن دور الشعر السياسي والاجتماعي لا عن تجاهل لأهمية هذا الدور ولكن لأن البحث فيه يتشعب و يطول، ولأنني أرى فيه رأياً لا تقرني عليه غالبية الشعراء ولا غالبية النقاد.

وبالامكان أن نطرح هذه المسألة على هيئة أسئلة ثلاثة :

السؤال الأول : هل من صالح البشرية أن يكون للشعر دور سياسي واجتماعي ؟

السؤال الثاني : هل كان للشعر العربي دور سياسي واجتماعي في الماضي ؟

السؤال الثالث : هل للشعر العربي دور سياسي واجتماعي في هذه الفترة المعاصرة ؟

لا شك ان الشعر في كل زمان ومكان تعرض على نحو أو آخر للقضايا الاجتماعية والسياسية التي شهدها عصر الشاعر. غير ان تسليمنا بهذه البديهية لا يعني تسليمنا بأن هذه المعالجة كانت في جميع الأحوال في صالح تلك القضايا أو في صالح المجتمع الذي ظهرت فيه. انني أستميح العذر من الشعراء الموجودين في هذه القاعة، ومن الشعراء خارجها اذا قلت انني أحتاج الى دليل يقنعني بأن تأثير الشعر السياسي والاجتماعي كان دائماً وأبداً في جانب الخير والحق والعدالة. من الشعراء من تغنى بالحرية ومنهم من مجد أعداءها.. من الشعراء من تحرق الى العدل ومنهم من افتخر بالظلم. منهم من دعا الى الحب ومنهم من حث على الحقد. منهم من تاق الى غد أفضل له ولمجتمعه وللانسانية ومنهم من هام بأسوأ مافي نفسه وما في مجتمعه. انني شخصياً أعتذر عن الاقامة في المدينة الشاعرة ان وجدت مثل هذه المدينة، لأنها لن تكون أحسن من أية مدينة أخرى. وأعتذر عن السكن في أي مدينة يحكمها أمرؤ القيس وعنترة والحطيئة والفرزدق وجرير والبحتري والمتنبي أو لجنة من هؤلاء مع اعجابي الشديد بشاعر يتهم.

انني أستغرب عندما أسمع النقاد يدعون جميع الشعراء الى اصلاح مجتمعاتهم وتحرير أوطانهم، أستغرب لأن من الشعراء من لا يستطيع أن يصلح نفسه فكيف يصلح مجتمعه، ومنهم من لا يستطيع أن يتحرر من أهوائه فكيف يحرر وطنه. وانني أستغرب أكثر عندما أجد من يتوقع من الشاعر أن يكون مفكراً حكيماً يرسم لبني قومه الطريق ويستجلى لهم دروب المستقبل.

ان الشاعر ليس أذكى من غيره، ولا أحكم من غيره ولا أشد وطنية من غيره : لا يميز الشاعر عن غيره الا انه يقول الشعر.

على انه سواء أقتنع المرء ان تأثير الشعر تأثير خير أو شك في ذلك، فانه سيسلم بأن الشعر العربي لعب خلال التاريخ العربي دوراً يفوق دور الشعر في مجتمعات أخرى ولعل مرجع هذا هو ان العربي يطرب للشعر أكثر من غيره، و ينفعل بالشعر أكثر من غيره، و يتمثل بالشعر أكثر من غيره، انني بعد أن أسلم بهذه الحقيقة أزعم أن التأثير السياسي والاجتماعي للشعر بلغ أوجه في عهد الجاهلية ثم أخذ في الانحسار شيئاً فشيئاً حتى بلغ مرحلة التلاشي في عصور الانحطاط ثم بدأ شعراء القرن العشرين يحاولون أن يعيدوا الى الشعر شيئاً من مجده الغابر.

كان العرب في الجاهلية يحتفلون اذا ظهر فيهم شاعر و يعلقون القصائد التي تعجبهم في الكعبة، و يقيمون للشعر أعياداً ومواسم ويحرصون على رضى الشعراء ويجزعون من غضبهم. غير ان فترات التاريخ التي تلت الجاهلية شهدت انحساراً تدريجياً في مجد الشعر وفي دوره السياسي والاجتماعي. وليس من العسير أن نتبين أسباب هذه الظاهرة التي أشرنا اليها في بداية الحديث و يكفي هنا أن نتحدث عن أربعة أسباب ساهمت في عملية الانحسار. أولاً، كان الشعر في الجاهلية الفن الوحيد ثم ما لبث أن نافسته فنون أدبية أخرى كالخطابة والكتابة بأنواعها ثم ظهرت علوم جديدة لم تكن معروفة من قبل كالعلوم الشرعية وعلوم النحو ثم علوم الرياضيات والطب والفلك والأحياء. ثانيا: كان أهم سبب لانتشار الشعر هو سهولة حفظه في مجتمع لا يحسن القراءة والكتابة ولقد كان من الطبيعي أن يؤدي انتشار الكتابة الى امكان تداول الشعر بسهولة مما أفقد الشعر ميزة كبرى على النثر. ثالثاً: أدى تطور الحضارة وتعقد المجتمع الى أن يفقد الشعر تأثيره السحرى على العقل العربي ولا أظن ان أحداً يشك في ان انسان العصر العباسي الذي عرف قدراً كبيراً من الثقافة وعاش في بيئة فكرية متطورة ما كان يمكن أن يستجيب للشعر بنفس الاندفاع والحماس الذي عرفه انسان العصر الجاهلي الذي كان ينام و يصحو و يسير على ايقاع الشعر. رابعاً: أدى انهماك معظم الشعراء في المديح وتحولهم الى أُجراء يقولون: ما لا يعنون الى فقدهم بعض احترام الناس وبالتالي بعض قدرتهم على التأثير في الناس.

وبقدوم عصور الانحطاط فقد الشعر محتواه الفني ومضمونه الاجتماعي وتحول الى نظم سقيم في الألغاز والأحاجي والتشطير والتاريخ لحوادث معينة. وقد شهدت بداية

القرن العشرين محاولات الشعراء العرب للنهوض بالشعر وقد كانت جميع هذه المحاولات، سواء المحاولات التقليدية التي بدأها البارودي وسار على منوالها شوقي وحافظ أو محاولات مدرسة الديوان التي قادها العقاد والمازني وشكري أو محاولات مدرسة أبو للو أو حركة التمرد على القافية الواحدة والتفعيلة المتكررة في الأربعينات، كانت تلك المحاولات جميعها تستهدف التجديد لا في الشكل والأسلوب فحسب بل ترمي الى اعطاء الشعر بعداً اجتماعياً سياسياً يجعله وسيلة من وسائل تحريك الأمة وتطويرها.

لقد استطاع دعاة التجديد المتعاقبون أن يحققوا كثيراً من النجاح. انتشل البارودي الشعر من ركاكته وأعاد اليه الجزالة والفصاحة وفتح شوقي ميدان الرواية أمام الشعر واستطاع شعراء مدرسة الديوان أن يدخلوا في الشعر العربي مفاهيم جديدة مثل وحدة القصيدة وأن يقللوا الاهتمام التقليدي بالبيت الفرد أما شعراء أبو للو ومدرسة المهجر فقد توسعوا في تنويع القافية وفي المزاوجة بين التفعيلات، ثم جاءت حركة الشعر الحديث في منتصف الأربعينات فأدخلت أهم تجديد شكلي عرفه الشعر العربي في تاريخه حين تمردت على وحدة التفعيلة وتحللت من وحدة القافية.

ولقد استطاع الشعر العربي، بالاضافة الى ما حققه من تجديد في الشكل أن يعالج كثيراً من القضايا الاجتماعية والسياسية التي شهدتها فترة السبعين سنة الماضية. تغنى الشعراء العرب بالحرية ونددوا بالاستعمار ودعوا الى الاستقلال وتحرقوا الى الوحدة وكتبوا عن مأساة فلسطين وعبروا عن تطلع الأمة العربية الى غد من الرفاهية والعدالة الاجتماعية.

على اننا بعد أن قررنا هذه الحقيقة ينبغي أن نبادر فنقرر حقيقتين ثانيتين بها. أولاهما ان الشعر العربي الذي تعرض للمواضيع السياسية والاجتماعية لم يرق في مستواه الفني بحيث يتناسب مع القضايا الخطيرة التي عالجها. لقد غلبت على معظم قصائد الشعر السياسي التقليدي صفات التقريرية والخطابة والتهويل كما غلب على معظم قصائد الشعر السياسي الحديث طابع الرمزية المفرطة وطابع الكليشيهات المتكررة والمستمدة في معظمها من الأساطير اليونانية.

ان الشعراء الذين استطاعوا أن يعبروا تعبيراً فنياً جميلاً عن قضايا المجتمع السياسية أقل من القلة وان القصائد الخالدة التي أنتجوها تكاد تعد على أصابع اليدين ولعل اكبر دليل على ما أقول: هو اننا اذا تساءلنا عن الأعمال الشعرية الممتازة التي تحدثت عن ثورة الجزائر لم نجد ما يشفي الغليل. واذا تساءلنا عن أثر مأساة فلسطين في الشعر لم نعثر الا على شعر متوسط لا يبلغ مستوى الروعة والخلود الا في قصائد معدودة. ان هذه ظاهرة مؤلمة وهي ظاهرة محيرة أترك لغيري ممن هو أقدر مني على التحليل، أن يفسرها.

والحقيقة الثانية هي ان الشعر العربي، رغم معالجته المتكررة لقضايا السياسة والاجتماع لم يستطع أن يكون عاملاً مؤثراً في مسار المجتمع العربي المعاصر. صحيح ان بعض الأشعار الوطنية تقرأ فتثير الحماس الوقتي وتبقى على الشفاه فترة من الزمن. ولكن لا أجد أي دليل يقنعني بأن هذه القصائد كانت رافداً أساسياً من روافد العمل السياسي العربي. وأستطيع القول:اننا اذا أستعرضنا المؤثرات الفعالة في حياة المجتمع العربي خلال السبعين سنة الماضية لم نستطع رغم ما نكنه للشعر من محبة، ان نعتبره أحد هذه المؤثرات، ولعل أحداً لا يجادل ان كتاب المقالة السياسية والصحفيين والعاملين في أجهزة الإعلام الأخرى لعبوا دوراً يفوق بكثير دور الشعراء في رسم خارطة العقل العربي.

وقبل أن يتبادر الى ذهن أحد انني بمواجهة هذه الحقيقة المؤلمة أوجه نقداً من أي نوع للشعر أسارع الى القول بأن اللوم لا يقع على الشعراء بقدر ما يقع على عدد كبير من الظروف التي تضافرت لتحصر الشعر في دائرة ضيقة يصعب عليه وهو سجينها أن يمارس دوراً يذكر في التأثير في المجتمع. ان مجتمعنا العربي المعاصر لا يكاد يقرأ الشعر يندر أن نرى الشاعر الذي يعيد طبع ديوانه أو يطبع منه أكثر من بضعة آلاف نسخة بل اننا نستطيع القول ان الشاعر الذي يستطيع استرداد نفقات الطبع يعتبر محظوظاً. لو سرت في أي بلد عربي وسألت رجل الشارع عن اسم اشهر الساسة أو نجوم السينما أو المطربين أو لاعبي كرة القدم في بلده أو في بلد عربي آخر لما تردد في الإجابة، ولو سألته عن أشهر الشعراء لما لقيت منه سوى الوجوم المشوب باستغراب. ان الشاعر العربي الوحيد الذي استطاع ان يخرج الى دائرة الضوء فينافس لاعبي الكرة ونجوم الشاشة في الشهرة هو نزار قباني وهو في الواقع ظاهرة فردية وإستثناء يؤكد القاعدة.

انني أزعم ان نزار قباني رغم الشهرة الواسعة لم يستطع أن يحقق ما حققه سلف له حين كتب عن المليحة في الخمار الأسود فتخاطفت النساء الخمر السوداء و بيعت الالآف منها وأنقذ صديق الشاعر من افلاس مؤكد .

والموضوعية تقتضينا هنا أن نشير الى ان الشعر العالمي ليس أسعد حظاً من الشعر العربي في المجتمعات الغربية مثلاً يعرض فيلم فيراه مئات الملايين ، وتنشر قصة فيقرأها عشرات الملايين وترسم لوحة فتطبع منها مئات الآلاف من النسخ ، و يطبع ديوان لشاعر شهير فلا يكون حظه أسعد بكثير من حظ ديوان عربي .

لعلنا بعد هذه الجولة نستطيع أن نواجه السؤال الذي يمثل عنوان المحاضرة فنقول : نعم ان للشعر مكاناً في القرن العشرين. يتيح للشاعر التعبير عن تجاربه و يتيح للقارىء أن ينفعل و يتجاوب مع الشاعر غير ان الشعر لا يستطيع أن يقوم بدور سياسي اجتماعي يذكر. ومع ذلك فان أحداً لا يجادل في ان من حق الشعر أن يحاول و يكرر المحاولة ليفرض نفسه على المجتمع وان من حقه أن يحلم دائماً بغد يصل فيه الى ملايين البشر فيؤثر في حياة ملايين البشر.

حتى نصل الى ذلك اليوم أقول للشاعر العربي : ان كتابتك للشعر في حد ذاتها لا تعفيك من واجبك الأساسي كمواطن عربي في أن تحاول تطوير مجتمعك ، موقعك أياً كان موقعك. وأقول لقارىء الشعر العربي : ان اعجابك بالشعر الحماسي الوطني لا يعفيك من التزامك بان تقدم لوطنك التضحية التي تتجاوز بكثير لحظة عابرة من الحماس المؤقت.



حوار عن نفسي .. !

*** من أنت ؟**

ـــ إنسان .

*** هذا هروب من السؤال.**

ـــ لماذا ـــ الست انساناً ؟

*** هناك أكثر من ثلاثة بلايين انسان . ولكنني أريد أن أعرف من أنت ؟**

ـــ أنا أحدهم .

*** هذا لا يكفي . قل لي من أنت ؟**

ـــ سأجيبك عندما أتوصل الى الاجابة . مرات عديدة تصورت انني أعرف من أنا . ومرات عديدة فوجئت انني لا أعرف انني لا أزال أبحث عن نفسي في نفسي .

*** ماذا تريد أن تعرف عن نفسك ؟**

ـــ أريد أن أعرف مثلاً مدى انانيتي . أعرف بالتأكيد انني أناني .. ولكني أود أن أعرف حدود هذه الأنانية .

*** اليس هناك اختبار للأنانية ؟**

ـــ هناك . ولكنني لن أجتازه . لو كنت مع اثنين في قارب وسط المحيط لا يتسع الا لاثنين لما تطوعت بالقاء نفسي في البحر .

*** هذا اختبار قاس الا يوجد أسهل منه ؟**

ــ لا اعتقد انني أجتاز الامتحان السهل.. انني كلما دخلت مكاناً بحثت عن أكثر المقاعد راحة .

*** هذاأيضاً اختبار قاس. كل البشر أنانيون بهذه المعايير.**

ــ الم أقل انني واحد منهم ؟

*** لنفترض انك أناني .. ماذا تر يد أن تعرف عن نفسك أيضاً ؟**

ــ مدى طموحي .

*** أتجهل انك طموح ؟**

ــ لست متأكداً من ذلك. أحياناً يخيل الي ان الطموح هو القوة المحركة التي تدفعني وأحياناً أشعر ان الظروف وحدها هي التي تضعني حيث تشاء .

*** هل تخاف الطموح ؟**

ــ نعم . الرجل الطموح عادة رجل أناني .

*** لماذا أعدتنا الى الأنانية ؟!**

ــ لأن « الأنا » جزء من كل شيء ليتها لم تكن .

*** ما علاقة الطموح بالأنانية ؟**

ــ الطموح هو أن تر يد أن تكون أفضل من الآخر ين. وهذه الفكرة أنانية الى حد ما .. ولا اخلاقية الى حد ما .

*** هذا تطرف**

ــ ربما أحياناً يكون التطرف أقرب الى الحقيقة .

*** ألست متأكداً من شيء.**

ــ بلى انني متأكد انني جاهل .

*** هل هذا من قبيل التواضع ؟**

ــ لا . لا أعتقد انني متواضع .

*** هل أنت مغرور؟**

ــ لا أعتقد ذلك .

*** أنت تناقض نفسك .**

ــ ماذا تعني بالتناقض ؟

*** أن تفعل الشيء ونقيضه .**

ــ أي ضير في ذلك ؟

*** هذا يخالف المنطق .**

ــ التصرف المنطقي ليس بالضرورة تصرفاً حكيماً .

*** كيف ؟**

ــ عندما يشتمك أحد فمن المنطقي أن تشتمه .. ولكن هذا ليس أفضل رد عليه .

*** لا زلت أجهل من أنت ؟ سأحاول بطريقة غير مباشرة :**
ماهي أكلتك المفضلة ؟

ــ اللحم . وهي نفس الأكلة التي تفضلها الأسود .

*** الأسود !! ما وجه الشبه بينك وبينها ؟**

ــ الأسود وأنا نأكل ونشرب .. ونتناسل ونموت .

*** ولكنك ــ فيما يبدو ــ انسان مسالم .. والأسود حيوانات كاسرة .**

ــ كثير من الأسود مرت بهذا العالم دون أن تؤذي انساناً . ولا استطيع أن أدعي ذلك .

*** هل آذيت أحداً ؟**

ــ بالطبع مرات أكثر من أن تحصى .

*** عمداً.. أم بطريق الخطأ ؟**

ــ بالنسبة للضحية يستوي الأمر

*** متى كانت آخر مرة آذيت فيها أحداً ؟**

ــ هذا الصباح.

*** ماذا فعلت ؟.**

ــ ضربت ابني

*** لماذا ؟**

ــ لأنه صرخ في وجه أخته.

*** كنت إذن تحاول تأديبه ؟**

ــ ربما لكن الضرب آذاه.

*** غير ان الضرب كان لصالحه.**

ــ هل انت متأكد من ذلك ؟ كان الألم الذي سببته له أكثر من الألم الذي سببه لأخته. ثم الا تعتقد انه تعلم الصراخ مني ؟

*** دعنا من ابنك .. هل آذيت أحداً غيره ؟**

ــ الا تعتقد ان الذي يقدر على ايذاء ابنه قادر على ايذاء الآخرين ؟

*** اليست هناك مبادىء تبرر ايذاء الاخرين أحياناً ؟**

ــ ربما .. غير انهم يقولون ان الغاية لا تبرر الوسيلة.

*** يقولون ؟! الا تؤمن بذلك ؟.**

ــ أجد صعوبة في التفريق بين الغاية والوسيلة.

*** وكيف ؟**

ــ كل وسيلة هي في الوقت نفسه غاية.

* أوضح.

ـــ كان الضرب وسيلة لتأديب ابني.. غير انه كان بالامكان اختيار وسيلة أخرى. اذن فقد كان الضرب غاية. ثم ان الغاية قد تكون أسوأ من الوسيلة.

*** هذا يزيد الأمر تعقيداً. باختصار هل أنت شرير؟**

ـــ ماذا تعني بكلمة شرير؟

*** هل تحمل نوايا سيئة للآخرين؟**

ـــ كثيراً ما يرتكب حسنو النية أعمالاً شريرة.

*** هذا مستحيل.**

ـــ أبداً. الا تعتقد ان الاسكندر ونابليون وهتلر كانوا يعتقدون انهم يخدمون البشرية؟

*** ولكن سيئ النية لا يمكن أن يرتكب أعمالاً طيبة.**

ـــ هل أنت متأكد؟ الم تسمع عن لسان الحسود الذي ينشر الفضائل؟ هذا اذا اعتبرنا الحسود شريراً.

*** الا تدين الحسود أخلاقياً**

ـــ هل تدين المصاب بالسكر؟!

*** انك تبرر كل شيء.**

ـــ أنا لا أحاول أن أبرر. انني أحاول أن أفهم.

*** ألم تحس أنت بالحسد؟**

ـــ لا أذكر انني تمنيت زوال نعمة أحد.. ولكنني كثيراً ما شعرت بالرغبة في هزيمة أحد المنافسين.

*** ولكن الأمر يختلف .. لا علاقة بين الحسد والمنافسة.**

ــ قد تكون المنافسة أسوأ من الحسد.

ــ كيف ؟

ــ عندما ينتحر الطالب لأنه فشل في الامتحان

*** هذا مثل متطرف .**

ــ عندما يفلس البقال .. لأن جاره أكثر فعالية منه .

*** لقد كان المفلس يستحق الافلاس ! البقاء للأفضل .**

ــ ربما كان المفلس هو أفضل الا ثنين .

*** دعنا من هذا .. فلنعد اليك .. حدثني عن جوانب الخير في نفسك : هل أنت كريم ؟**

ــ أشك في ذلك . لو كنت كريماً لما تساءلت عن مدى أنانيتي .

*** دعني أوضح أكثر: الا تساعد الناس ؟**

ــ انني أفعل ذلك كلما استطعت .. ولكن هذا ليس كرماً .. انني أتوقع أن يساعدوني بدورهم .. هذه معاملة بالمثل .

*** ما هو الكرم اذن ؟**

ــ أن تعطي من نفسك .

*** وكيف يكون ذلك ؟**

ــ بأن تحب الآخر ين .

*** ما علاقة الحب بالكرم ؟**

ــ الحب هو الذي يفرق بين العطاء والإ تاوة .

*** ولكن ألست تحب الآخرين ؟**

ــ كلا . للأسف . انني أحب أصدقائي وأقاربي .. ولكنني لا أحب الناس الذين لا أعرفهم .

*** لا يفترض في أحد أن يحب الناس جميعاً .**

ــ ان محبتي لأولادي لا تختلف عن محبة الكلبة لجروها .

ــ الحب الحقيقي هو أن تحب ما يصعب حبه .

*** أنت تقسو على نفسك .**

ــ على العكس انني أدللها .

*** كيف ؟**

ــ انني أتركها تصور الأمور على غير حقيقتها .

*** أوضح ؟**

ــ انها مثلاً تسمى الصراحة تهوراً .

*** غير اننا لا بد أن نتجنب ايذاء الناس .. الصراحة تؤذي الناس .**

ــ هذا ما تقوله لي نفسي بالضبط .

*** ألا تصدقها ؟**

ــ أحيانا .. أحياناً أعرف انها كاذبة . النفاق يؤذي أكثر من الصراحة .

*** هل أنت صريح ؟**

ــ كـــلا .

*** عدنا الى التناقض . ! قل لي ماذا تتمنى ؟**

ــ أن أتعلم .

* **هذا أيسر الأمور.**

ــ على العكس انه أصعب الأمور. التعلم أقصى درجات الشجاعة.

* **ماعلاقة التعلم بالشجاعة ؟**

ــ التعلم يعني القدرة على العيش دون أوهام.

* **ماذا تود أن تتعلم ؟**

ــ أن أقبل نفسي كما هي.

* **لماذا ؟**

ــ لأتخلص من كرهها وحبها.

* **لماذا لا تريد أن تكره نفسك ؟**

ــ لأن الذي يكره نفسه لا يمكن أن يحب أحداً أو شيئاً.

* **حسناً .. لماذا لا تريد أن تحب نفسك ؟**

ــ أخشى ألا يبقى حب للآخرين.

* **ماذا يحدث لو قبلت نفسك ؟**

ــ عندها يمكن أن أنساها نهائياً.

* **وماذا يحدث عندها ؟**

ــ يمكن بعد ذلك أن تبدأ مرحلة النضج النفسي، الاهتمام الحقيقي بالآخرين.

* **وماذا تفعل في أثناء ذلك ؟**

ــ أبحث عن نفسي في نفسي.

* **زدني أيضاحــاً.**

ــ ..!!!

حكاية بيروقراطية.. خيالية جداً

أراد موظف صغير في جهاز ما أن يتمتع باجازته السنوية فأتفق مع زميل له في العمل على أن يقوم بواجباته اثناء غيابه وقدم طلباً الى رئيسه المباشر قدمه هذا بدوره الى رئيسه المباشر حتى وصلت المعاملة الى المسؤول عن الجهاز ولنسمه البيروقراطي الكبير.

البيروقراطي الكبير شخصية نادرة بالغة الذكاء بالغة التعقيد بالغة الحذر تتمتع بالأناة والروية ورباطة الجأش. ما أن وصلت المعاملة الى البيروقراطي الكبير حتى قرأها خمس مرات فقط واستوعبها استيعاباً كاملاً. قال البيروقراطي الكبير لنفسه: «صحيح اني أعرف من معلوماتي العامة ان كل موظف يستحق اجازة سنوية ولكن مثل هذا الموضوع المهم لا يجوز، في عصر التخصص، أن يبت فيه على أساس المعلومات العامة فلا بد من احالة القضية الى أحد المختصين اتباعاً لهذا المنطق السليم أحال البيروقراطي الكبير المعاملة الى مستشار قانوني لابداء الرأي في أحقية الموظف من حيث المبدأ في الاجازة السنوية ولم ينس البيروقراطي الكبير آن يكتب «عاجل» على المعاملة.

وصلت المعاملة الى مكتب المستشار القانوني. ولما كان هذا المستشار قد قدم لتوه من صقع بعيد من أصقاع الدنيا ولما كانت معلوماته عن الأنظمة المحلية تعادل معلومات كاتب هذه السطور عن هندسة الصواريخ فقد اضطر الى أن يبحث في السوابق القضائية العالمية وركز على أحكام المحاكم الهولندية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر وغاص في مئات الكتب والمراجع ثم خلص بنتيجة مؤداها ان من حق الموظف من حيث المبدأ التمتع باجازة سنوية.

عادت المعاملة الى البيروقراطي الكبير الذي قرأها ثلاث مرات فقط واستطاع فهمها رغم لغتها القانونية العسيرة. قال: صاحبنا لنفسه «صحيح ان المستشار كفء وقد اخترته وأستقدمته بنفسي لمواهبة العديدة ولكنه بشر والبشر يخطئون والموضوع مهم والحصافة الادارية تقضي بعدم الاكتفاء باستشارة واحد اذا كان بالامكان استشارة عشرة» وانطلاقاً من هذا التفكير الصافي الواضح حول صاحبنا المعاملة بأسرها الى مستشار قانوني ثان بعد أن كتب عليها «عاجل جداً».

وصلت المعاملة الى المستشار الثاني الذي ينتمي الى صقع آخر من أصقاع الدنيا والى مدرسة قانونية غير التي ينتمي اليها المستشار الأول. قرأ المستشار المعاملة بامتعاض واضح وما أن انتهى منها حتى أكب على مراجعه وكتب مذكرة مستفيضة أثبت فيها حق الموظف في أن يتمتع باجازة سنوية من حيث المبدأ ولكنه أضاف أنه يجد نفسه مضطراً الى أن يختلف مع زميله الفاضل حول الأساس القانوني الذي يقوم عليه الحق في الاجازة.

رجعت المعاملة بالسلامة الى البيروقراطي الكبير الذي قرأها مرتين فقط وتمكن من استيعابها وهضمها. بعد أن أنتهى من قراءتها قال: لنفسه «كيف يمكن منح اجازة اذا كان هناك خلاف حول الأساس القانوني لها؟ لا بد من رأي ثالث».

«تمشياً مع هذا التحليل العبقري أحال المعاملة بأكملها الى مستشار ثالث بعد أن كتب عليها «عاجل جداً ومهم». وبعد أن أرسل صاحبنا المعاملة تذكر انه متواضع جداً مع مرؤوسيه وان احالة المعاملات بهذا الشكل جاف قد يغضب المرؤوسين فأمر باستدعاء المعاملة في منتصف الطريق وكتب عليها بخط يده مع «أعطر التحية».

وصلت المعاملة الى المستشار القانوني الثالث. ولما كان هذا المستشار محدود الثقافة ضيق الأفق لم يستقدم من أي مكان ولا يتمتع بأية مواهب فانه أكتفى بكتابة النص النظامي الذي يعطي الموظف الحق في اجازة سنوية وأعاد المعاملة الى البيروقراطي الكبير.

درس البيروقراطي الكبير المعاملة بدقة بالغة ورأى أنه قد أستكمل أسباب البحث

القانوني وانه توصل باتباع الطرق العلمية والوسائل المنهجية الى اقتناع تام بأن من حق الموظف التمتع باجازته السنوية. بعد أن حسم صاحبنا الناحية القانونية حول محه الالكتروني الى الناحية الادارية. قال صاحبنا لنفسه «صحيح ان من حق الموظف قانوناً التمتع باجازة سنوية ولكن العمل يجب أن يستمر ولا يتعطل مهما كانت الظروف». ابتسم صاحبنا ابتسامته الكبيرة التي تظهر كلما حقق انتصاراً بيروقراطيا باهراً وأحال المعاملة «سري للغاية» الى الرئيس المباشر للموظف طالب الاجازة بعد أن أشر عليها «للاطلاع وأفيدونا هل توافقون على تمتعة بالاجازة السنوية في الوقت الذي اقترحه؟.».

وصلت المعاملة الى الرئيس المباشر فقرأها وكتب عليها بالحرف الواحد «مع التحية والاحترام لجناب البيروقراطي الكبير ولا مانع لدينا من أخذ المذكور أجازته المذكورة في الموعد المذكور».

وصلت المعاملة الى البيروقراطي الكبير الذي تفهم محتوياتها من أول قراءة وقال لنفسه «ربما كان المذكور صديقاً للمذكور وأتفقا على تعطيل العمل فلا بد من التأكد انه لا يوجد تلاعب في العملية». أعاد صاحبنا المعاملة الي الرئيس المباشر بعد أن شرح عليها شخصياً على النحو التالي «ماذا سيتم في غيابه؟ من سيتولى عمله؟ هل يستطيع القيام بالمسؤولية؟ هل سبق أن جربتموه؟ كيف ومتى وأين ولماذا؟ وربما!».

وصلت المعاملة الى الرئيس المباشر فأعد عليها عرضاً طويلاً برهن فيه، بشكل قاطع، أن العمل لن يتعطل في غياب الموظف وان زميله الذي سيحل محله موضع الثقة والمسؤولية وسبق أن كلف بأعباء كبيرة قام بها على خير وجه وأعاد المعاملة مستوفاة الى البيروقراطي الكبير.

وصلت المعاملة الى البيروقراطي الكبير يحملها فراشان فدرسها بتمعن وتذكر نصيحة ادارية تعلمها في مؤتمر اداري في استكهولم قضى فيه ستة شهور في السنة الماضية. تقول النصيحة الادارية: «يحسن بالمسؤول أن يفاجيء صغار الموظفين بين الحين والحين بالتبسط والمقابلة الشخصية».

ابتسم صاحبنا ابتسامتة المشار اليها قبل قليل وقرر أن يضرب عصفورين بحجر واحد. يطلب مقابلة الموظفين الصغيرين شخصياً وبهذا يكتسب شعبية بين صغار الموظفين من ناحية و يقرر بنفسه في ضوء فراسته الفذة مدى استحقاق أحدهما للاجازة من ناحية ومدى قدرة الآخر على القيام بعمله، من ناحية أخرى. أعاد صاحبنا المعاملة بعد أن شرح عليها بأنه يريد مقابلة الموظفين المذكورين شخصياً.

في الموعد المحدد وصل الموظفان الى مكتب البيروقراطي الكبير فاستقبلهما مدير المكتب لشؤون قفل الأبواب وأحالهما الى مدير المكتب للشؤون الدعائية الذي أحالهما الى مدير المكتب للشؤون الادارية الذي أحالهما الى مدير المكتب لما تبقى من الشؤون الذي أحالهما الى السكرتير الخاص الذي يتمتع، دون سكان الكرة الأرضية كلها، بحق الاتصال التلفوني المباشر مع البيروقراطي الكبير. وأخبره بوجود الموظفين الصغيرين فأمر صاحبنا بإدخالهما «حالا» ولما كان السكرتير الخاص، بدوره حاد الذكاء فقد فهم المعنى الاصلاحي لكلمة «حالاً» وأدخلهما بعد ثلاث ساعات من الانتظار قضياها في صحبة مدير المكتب لشؤون العبوس في أوجه المنتظرين.

دخل الموظفان الى صاحبنا الذي سلم عليهما بحرارة بالغة وطلب منهما الجلوس في هذه الأثناء فتح الباب ودخل مدير المكتب للشؤون الدعائية ومعه وكيل المصور الرسمي للمكتب. التقط المصور عشر لقطات وخرج الاثنان (في الصباح التالي ظهرت الصورة في الجرائد وتحتها تعليق يقول : البيروقراطي الكبير يبحث مشاكل صغار الموظفين على الطبيعة، نظر البيروقراطي الكبير الى طالب الاجازة نظرة نافذة عميقة وسأله بهدوء «هل تريد اجازة؟ رد الموظف بخجل وارتباك «نعم». هز صاحبنا رأسه هزة ذات معنى وأبتسم ابتسامة ذات معنى ثم التفت الى الموظف الآخر ونظر اليه نظرة نافذة عميقة وسأله بلطف «هل تستطيع القيام بعمل زميلك أثناء اجازته؟». أجاب الموظف الثاني بحياء وتعلثم «نعم». هز صاحبنا رأسه هزتين وأبتسم ابتسامتين وقام معلناً انتهاء المقابلة.

بعد انتهاء المقابلة كلم صاحبنا سكرتيره الخاص وطلب منه أن يبلغ مدير المكتب لشؤون قفل الأبواب بأنه يحتاج الى فترة من الهدوء والتأمل ولا يريد ازعاجاً من المراجعين أو التلفونات أو البرقيات. خلا صاحبنا الى نفسه وبعد التفكير الهادىء

المنظم وجد أن الموضوع قد أستكمل حيثياته فقرر أن يتخذ قراراً في صباح الغد بالموافقة على منح الموظف اجازته في الموعد المقترح.

في تلك الليلة أوى البيروقراطي الكبير الى فراشه بعد يوم من العمل المرهق المثمر راضياً عن نفسه وعن منجزاته. وما أن أستغرق في النوم حتى رأى فيما يرى النائم انه دخل الي مقر العمل فلم ير أحداً من الموظفين سوى الحارس فسأله «أين ذهب الموظفون؟» فرد الحارس «جميعهم في اجازة». صحا صاحبنا من النوم مرتعباً وأدرك ان هذا الحلم نذير بما سيحدث اذا ترك الحبل على الغارب للموظفين في أخذ اجازتهم. بدأ صاحبنا يفكر والعرق يتصبب منه بغزارة: «ماذا يحدث اذا غاب جميع الموظفين؟ من سيتولى قبل أبوابي؟ من سيتولى الاعتذار بعدم استطاعتي الرد على التلفون؟ من سيشترك في اللجان التي سيشكلها؟ من يوزع صوري وأخباري على الجرائد؟» قرر صاحبنا في هذه اللحظة من لحظات الالهام البيروقراطي أن ينظم موضوع أخذ الاجازات تنظيماً يمنع حدوث المأساة التي توقعها الحلم.

في الصباح الباكر وصل البيروقراطي الكبير الى مكتبه فنعه مساعد مدير المكتب لشؤون قفل الأبواب، وهو حديث العهد بالعمل، من دخول المكتب ظناً انه أحد المراجعين. سر صاحبنا لهذه اليقظة وقرر أن يكتب خطاب تقدير للموظف في المستقبل. بقي صاحبنا في غرفة الانتظار حتى وصل مدير المكتب لشؤون قفل الأبواب فاعتذر له اعتذاراً حاراً وسمح له بالدخول. ما أن أستقر صاحبنا على مكتبه حتى دبج خطاباً الى وكيله يطلب فيه تشكيل لجنة برئاسة الوكيل لتنظيم موضوع أخذ الموظفين اجازاتهم السنوية ووضع الضوابط الادارية والقانونية والسيكلوجية المتعلقة بشتى جوانب الموضوع.

شكل الوكيل لجنة من عشرة خبراء برئاسته واجتمعت اللجنة ٩٩ اجتماعاً متواصلاً دام كل اجتماع منها حوالي ست ساعات ناقشت اللجنة في الاجتماع الأول موضوع «هل يحق للادارة أن تسأل الموظف أين سيقضي اجازته السنوية؟ وأنتهت بأغلبية الأصوات الى انه يجوز للادارة ذلك في الحالات القصوى التي يحددها البيروقراطي الكبير بقرار منه. ناقشت اللجنة في الاجتماع الثاني موضوع «هل تعطي الاجازة لاراحة الموظف من العمل أم لاراحة العمل من الموظف؟ ولم تستطع اللجنة

الوصول الى جواب قاطع فشكلت لجنة فرعية لاستكمال البحث. وناقشت اللجنة في الاجتماع الثالث موضوع «هل الاجازة حق موروث يولد به الموظف أم انه حق مكتسب» وقررت اللجنة بالأغلبية ان الاجازة حق موروث وهنا طلب أحد الخبراء أن يسجل تحفظه على هذا الرأي لأنه يخالف تحليل فرويد لعقدة أوديب البيروقراطية. واصلت اللجنة اجتماعاتها واستمر النقاش على هذا المستوى الفلسفي الرفيع حتى وصلت اللجنة الى تنظيم للموضوع في مائتين وخمسين مادة.

استلم صاحبنا البيروقراطي الكبير التقرير الضخم مع باقي المعاملة وراى، بما رزق، من انكار للذات وتواضع جم، انه لا يستطيع البت في التنظيم في ضوء معلوماته العامة. طلب صاحبنا خمس نسخ اضافية من التنظيم المقترح وأحال النسخة الأولى الى شعبة الدراسات والاحصائيات والمعلومات والبيانات وأحال النسخة الثانية الى شعبة البيانات والاحصائيات والدراسات وأحال النسخة الثالثة الى شعبة الخبراء المحليين وأحال النسخة الرابعة الى شعبة الخبراء الخواجات وأحال النسخة الخامسة الى مدير المكتب للشؤون الدعائية لاختيار مقتطفات من التنظيم ونشرها بعناوين بارزة في الصحف مع صورته (صورة البيروقراطي الكبير لا مدير المكتب).

درست الشعب التنظيم المقترح وقالت انه يحقق الغرض المطلوب وأوصت بالموافقة عليه ما عدا شعبة الخبراء الخواجات التي رأت ان التنظيم لا يعالج «ماذا يحدث اذا طلب موظف اجازة سنوية في الوقت الذي يتغيب فيه رئيسه المباشر في اجازة مرضية ووكيل رئيسه المباشر في اجازة استثنائية؟».

راى البيرقراطي الكبير ان هذه النقطة بالغة الأهمية وما دام ان التنظيم المقترح لم يعالجها فلا بد أن يعاد النظر في التنظيم بأكمله.

شكل البيروقراطي الكبير لجنة برئاسته مكونة من خمسة وعشرين خبيراً لدراسة الموضوع برمته. عقدت اللجنة اجتماعات عديدة أستغرق كل اجتماع منها سبع ساعات ناقشت اللجنة في الاجتماع الأول موضوع «هل يكتب الموظف طلب الاجازة على ورق أبيض أو مسطر؟». وناقشت اللجنة في االاجتماع الثاني موضوع «هل يجوز حرمان الموظف من الاجازة لأنه كتب الطلب بالقلم الرصاص؟». وناقشت اللجنة

في الاجتماع الثالث «هل يجوز للموظف أن يمرض خلال الشهر الذي يسبق اجازته السنوية» ؟ . وناقشت اللجنة في الاجتماع الرابع موضوع تبسيط اجراءات منح الاجازة وأعتمدت اللجنة اثنين وثلاثين نموذجاً يملأها الموظف للحصول على استمارة طلب الاجازة. قبل أن تستكمل اللجنة اجتماعاتها حزم البيروقراطي الكبير حقائبه وطار الى مؤتمر اداري في هونولولو استغرق عشرين يوماً والقى صاحبنا فيه بحثاً عنوانه «كيف تفسر الأحلام والكوابيس الادارية ؟» . من هونولولوانتقل صاحبنا الى تاهيتي لحضور ندوة دراسية مدتها ثلاثة شهور ومن المتوقع أن يلقي فيها بحثاً أصيلاً عنوانه «أهمية عامل السرعة في انجاز القرارات المصيرية» .

في أثناء غياب صاحبنا قدم الموظف طلباً ثانياً الى وكيله البيروقراطي الكبير يطلب الموافقة على منح اجازة. ولما كان الوكيل لا يقل حكمة ودهاء عن رئيسه فقد أشر على المعاملة «تؤجل حتى عودة البيروقراطي الكبير أو موت مقدم الطلب، أيهما أقرب» .



الخارطة الدولية الجديدة

هل السياسة الدولية اليوم مختلفة اختلافاً جذرياً عما كانت عليه قبل ثلاثين سنة عندما بدأت الحرب الباردة بين المعسكرين مع نهاية الحرب العالمية الثانية ؟ هناك من يجيب على هذا السؤال بالايجاب .. ويحشد الأدلة والشواهد التي تعزز وجهة نظره. وهناك من يرد على السؤال بالنفي ويحشد بدوره أدلة وبراهين تؤيد ما يذهب اليه .. وهذا الخلاف بين الموقفين لا يعدو أن يكون انعكاساً لخلاف أساسي بين فريقين من الناس : الفريق الأول يرى في كل فترة تاريخية تغييراً جذرياً عما سبقها من فترات ويذهب الى اننا لا بد من أن نبحث عن حلول جديدة وان الماضي لا يمكن أن يعلمنا شيئاً على الاطلاق. والفريق الثاني يرى ان التاريخ البشري ما هو الا صفحات متكررة متشابهة وان مظاهر التغيير مظاهر سطحية أما الواقع فانه (ما أشبه الليلة بالبارحة) !.

ولعل الحقيقة تكمن هنا في نقطة وسط بين هذين الموقفين. من ناحية لا نستطيع أن ننكر أن القوى الأساسية المحركة للبشر باقية لا تتغير عبر القرون. حب السلطة وحب التناسل وحب المال وحب البقاء، على سبيل المثال، قوى أساسية تحرك المجتمع البشري اليوم كما كانت تحركه قبل آلاف السنين وستستمر في تحريكه في المستقبل ومن هنا يتبين خطأ الذين ينفون وجود أي شبه بين الفترات التاريخية المتعاقبة .. ومن ناحية أخرى، فان بقاء القوى الأساسية المحركة للمجتمع على حالها عبر القرون لا يعني أن الظروف المتغيرة ليس لها أي تأثير. ان المناخ السياسي والاجتماعي والاقتصادي .. والثقافي المتغير بتغير الأزمان يطبع بطابعه الحياة البشرية. ومن ذا الذي يستطيع اليوم أن يجادل ان أكتشاف الطاقة الذرية وضع الانسان لأول مرة في تاريخه أمام معضلة خطيرة لم يسبق أن واجه لها مثيلاً ؟ واذا رجعنا الى السؤال الذي بدأنا به

المقال وجدنا ان الجواب الصحيح هو أن السياسة الدولية اليوم مختلفة اختلافاً واضحاً عما كانت عليه قبل ثلاثين سنة مع وجود مظاهر شبه قوية بين الفترتين. ولكي تتضح عناصر الاجابة أمامنا أكثر فأكثر يحسن أن نستعرض ملامح الخارطة الدولية الرئيسية كما أتضحت في نهاية الحرب العالمية الثانية واحداً واحداً ثم نعود فنرى ما جد على هذه الملامح اليوم لنتبين الفرق بين الصورتين ونحدد وجوه الشبه ونقاط الخلاف.

أولاً: أهم ما تكشف عنه الحرب العالمية الثانية هو ظهور دولتين رئيسيتين على مسرح السياسة الدولية أطلق على كل منها لقب Superpour أي الدولة العملاقة أو الدولة الأعظم لتميزها عن الدول العظمى التقليدية Greatpour وظهور دولتين عملاقتين من هذا النوع كان تطوراً جديداً لم يسبق له مثيل في السياسة الدولية منذ أن أنتهى عهد الامبراطوريات في القرن السابع عشر في أوربا وبدأ عهد الدول الاقليمية والسياسة الدولية قائمة على وجود مجموعة من الدول العظمى لا تقل عن خمس أو ست دول وعلى سبيل المثال القريب نذكر انه كانت هناك قبيل الحرب العالمية الثانية ست دول عظمى هي المانيا وبريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة واليابان والصين.

ثانياً: بالاضافة الى تقلص الدول العظمى الى دولتين عملاقتين شهد العالم لأول مرة أيضاً مولد الطاقة الذرية. لقد كان التطور في تكنولوجية الدمار مستمراً طيلة التاريخ البشري ولكن تذليل الطاقة الذرية وضع الانسان لأول مرة في تاريخه أمام سلاح يملك القضاء على عشرات الملايين ومئاتها سلاح يعطى البشرية لأول مرة في تاريخها الطويل القدرة على ابادة نفسها كلية..

كان العالم في تلك الأيام في غاية الخوف والقلق من هذا السلاح الجديد الرهيب وخاصة بعد أن شهد آثاره المدمرة في هيروشيما ونجازاكي. ان الذي يستعرض اليوم كتابات المفكرين والكتاب في تلك الفترة يدرك شعور الهلع والفزع الذي كان ينتاب العالم في تلك الأيام.

ثالثاً: خرج الاتحاد السوفيتي بعد ويلات كبيرة منتصراً من معركته مع النازية وقد عقد العزم على اتباع سياسة خارجية توسعية تضمن له من ناحية الحصانة الجغرافية التي تمنع تكرار ما حدث حين قامت المانيا بغزوه وتضمن من ناحية ثانية انتشار

الايديولوجية الشيوعية في جميع أنحاء العالم هذه الأيديولوجية التي تقوم على أساس حرب الطبقات والعمل على بناء الدولة الشيوعية في العالم بأكمله بدأ بروسيا مضى الاتحاد السوفيتي مسلحاً بهذه العقيدة التوسعية يفرض النظام الشيوعي على كافة دول أوربا الشرقية التي احتلتها قواته المسلحة، وكان الاعتقاد أيامها ان الاتحاد السوفيتي لن يكتفي بدول أوربا الشرقية. بل سيجتاح أوربا الغربية بأكملها.

رابعاً: نتيجة هذا الموقف، أتخذت الولايات المتحدة موقفاً حازماً من التوسع السوفيتي يرمي الى رسم حد فاصل لا يسمح للاتحاد السوفيتي بتجاوزه. وكان لدى الولايات المتحدة من القوة العسكرية، خاصة في ضوء احتكارها للسلاح الذري، وما يمكنها من وقوف هذا الموقف الحازم. من هنا كانت العلاقة بين الدولتين العملاقتين علاقة مواجهة عسكرية مباشرة ولم يكن أحد يستبعد أيامها أن تؤدي هذه المواجهة الى صدام عسكري، بل ان نشوب مثل هذا الصدام في غرب أوربا كان أمراً متوقعاً من يوم الى آخر. وغني عن الذكر ان هذا الموقف الامريكي، أدى الى اقناع الاتحاد السوفيتي بأن الدول الغربية مصرة على حصاره وتهديده وزاده اقناعاً بحكمة سياسته التوسعية مع استخدام المزيد من الحذر حتى لا تورطه في معركة مباشرة يعرف مقدماً انه سيخسرها.

خامساً: نتيجة المواجهة العسكرية بين الدولتين العملاقتين لجأت كل دولة الى محاولة تعزيز قواتها وإضعاف عدوتها عن طريق الأحلاف. أقامت الولايات المتحدة حلف الاطلنطي و بدأت مشروع مارشال ورد الاتحاد السوفيتي بحلف وارسو. أخذت الولايات المتحدة تحاول تطويق الاتحاد السوفيتي بنطاق كثيف من القواعد العسكرية الأمريكية وكان الاتحاد السوفيتي يقاوم هذه المحاولة بعنف. في ظل هذه الظروف اتخذ البحث عن الحلفاء طابع الهيستريا المحمومة و بدأ وكان العالم يسير بأجمعه الى نظام الكتلتين، بمعنى ان على كل دولة أن تقرر الانضمام الى هذا المعسكر أو ذاك.

سادساً: في هذا الجو المشتعل بالاحلاف والأسلحة والمواجهة المباشرة لم يكن هناك مجال للحياد. رفض كل من الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة قبول فكرة الحياد بحجة أن الحياد موقف لا أخلاقي وانه لا يمكن لأحد أن يقف على الحياد بين الخير والشر

ولهذا فقد بدا أول أيام الحرب الباردة انه لا مجال على الاطلاق لقيام كتلة محايدة بعيدة عن تأثير الكتلتين المتصارعتين.

سابعاً: لعلنا لا نستغرب بعد هذا اذا وجدنا ان الحرب الباردة كانت الحقيقة الأولى من حقائق السياسة الدولية وانها كانت تطبع العلاقات الدولية بطابعها: المعاهدات لا تعقد والاحلاف لا تقام والمساعدات لا تمنح والأسلحة لا تقدم الا انطلاقاً من الحرب الباردة وضمن اطارها. ونلاحظ هنا على سبيل المثال ان السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط كانت أسيرة الحرب الباردة بينما كان العرب يخشون التوسع الاسرائيلي الماثل أمام أعينهم كانت الولايات المتحدة تحاول ضمهم الى الأحلاف وادخالهم رغما عنهم ميدان الحرب الباردة. لقد كان هذا الموقف الامريكي عاملاً رئيسياً في تدهور العلاقات العربية الامريكية.

هذه هي الملامح الاساسية للخارطة الدولية قبل ثلاثين عاماً، فما هي صورتها اليوم.؟

أولا: لا تزال الولايات المتحدة.. والاتحاد السوفيتي تتمتعان بمركز الصدارة ولم تظهر الى جانبها دولة أخرى يمكن اعتبارها دولة عملاقة.. بل انه لا يوجد في الوقت الحاضر دولة يمكن في المستقبل القريب أن ترتقي الى مرتبة الدولة العملاقة.. أقرب مرشح لهذا المركز هي دول أوربا الغربية اذا تم توحيدها سياسياً.. وليس من المنتظر أن يتم هذا التوحيد خلال العقدين القادمين. ولعل الشيء الجديد في الموقف هو ان كلاً من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي كان جديداً على مركز الصدارة أما الآن فقد اكتسب كل منهما خبرة تزيد على ربع القرن في هذا المركز.

ثانياً: لا تزال البشرية تواجه المعضلة الذرية بكل ضراوتها وخطرها بل ان المعضلة ازدادت خطورة بتقدم التكنولوجية الذرية خلال الثلاثين عاماً الماضية، ان قنابل هيروشيما ونجازاكي التي أرعبت العالم في تلك الأيام لا تعد اليوم شيئاً يذكر بالنسبة الى القنابل المتطورة لقد جد على الموقف بالنسبة للطاقة الذرية ان البشرية اكتسبت شيئاً

من الخبرة في التعامل مع الأسلحة الذرية.. وبالتالي زال الهلع القديم وزال شيئ من الشعور بالقلق.

ثالثاً: لا يزال الخلاف الايديولوجي بين المعسكرين قائماً ولا تزال الايديولوجية الشيوعية تنادي بحرب الطبقات وبضرورة نشر الشيوعية في مختلف أنحاء العالم. الشيء الوحيد الذي جد هو ان الاتحاد السوفيتي وجد ان نشر العقيدة بالصدام العسكري المباشر مع الكتلة الغربية لا يتمشى مع مصالحه بعيدة المدى فآثر المهادنة الوقتية دون أي تغيير ولو طفيف في منطلقاته الايديولوجية الاساسية.

رابعاً لعل التغيير الذي طرأ على الملمح الرابع هو أهم تغيير شهدته خارطة السياسة الدولية وقد تم هذا التغيير بحلول ما يسمى سياسة الوفاق Detente محل المواجهة العسكرية المباشرة.

ان الذي يركز على هذا الملمح دون غيره سيصل الى نتيجة مؤداها أن فترة الحرب الباردة قد أنتهت الى غير رجعة وان فجراً جديداً للعلاقات الدولية قد أشرق على العالم. غير ان الحقائق لا تبرر كل هذا التفاؤل، من ناحية، نجد لسياسة الوفاق معارضين عديدين في الدولتين العملاقتين ويكفي أن نشير الى النجاح الكبير الذي حققه ريجان في الولايات المتحدة بمهاجمة هذه السياسة، من ناحية ثانية، لا يزال السباق في التسلح مستمراً ولم تستطع سياسة الوفاق أن تدفع بأي من الجانبين الى الاقلال من انفاقه على السلاح. ومن ناحية ثالثة ان احتمال قيام حرب تخوضها الدولتان العملاقتان عن طريق التورط التدريجي والمفاجيء لا يزال احتمالاً قائماً.. وما حرب فيتنام عنا ببعيد؟ من ذلك يتضح لنا ان القول بأن سياسة الوفاق قد قضت على المنافسة العسكرية أو على خطر الصدام العسكري قول: ينطوي على تفاؤل ساذج لا تبرره الوقائع.

خامساً: لم تعد للأحلاف قيمتها السابقة وقد وصلت الدولتان العملاقتان الى هذا الاقتناع نتيجة عدة تطورات سياسية وتكنولوجية.. لقد تطورت الصواريخ عابرة القارات تطوراً هائلاً الغى أهمية التواجد العسكري بقرب العدو. كما تبين ان الحلفاء ليسوا دائماً مصدر قوة بل كثيراً ما يكونون مصدر ازعاج واستنزاف للموارد. كما ان

محاولة الدولتين العملاقتين ضم دول العالم الثالث الى الأحلاف قوبلت بردود فعل عنيفة من هذه الدول التي أصرت على اتباع سياسة وطنية مستقلة. وفوق هذا كله فقد زالت الوحدة التي كانت قائمة داخل كل كتلة: ظهرت الخلافات السياسية والاقتصادية بين الولايات المتحدة ودول حلف الاطلنطي وظهر الخلاف الخطير بين الاتحاد السوفيتي والصين الشيوعية هذا الخلاف الذي انتقل بهما من مرحلة التحالف الى مرحلة العداء السافر.

سادساً: تغيرت تبعاً لهذا كله النظرة الى الحياد فبعد أن كان يعتبر موقفاً انتهازياً لا أخلاقياً أصبح يعتبر الموقف الأمثل أخلاقياً وسياسياً وتقبلت كل من الدولتين العملاقتين الفكرة وأصبح عدد الدول غير المنحازة يفوق عدد الدول المرتبطة باحدى الكتلتين **وهكذا** نرى أن الاتجاه نحو نظام **الكتلتين** لم يستمر وأخذ العالم يتحول تدريجياً الى عالم متعدد الكتل والمحاور.

سابعاً: يتضح من هذا الاستعراض ان الحرب الباردة لم تعد شغل العالم الوحيد، وبالتأكيد لم تعد تشغل دول العالم الثالث. تبين في الخمسينات والستينات ان دول العالم الثالث تحرص على استقلالها أكثر من حرصها على الانضمام الى إحدى الكتلتين، وقد دفع كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي الثمن غالياً عندما حاول الاصرار على سياسة الاحلاف. والآن ونحن في منتصف السبعينات تبدو مشكلة الفقرومشكلة التنمية أخطر بكثير في اذهان قادة العالم الثالث من مشكلة الحرب الباردة بين المعسكرين ان الكثير من المفكرين يتنبأون بأن الصدام في المستقبل لن يكون بين الرأسمالية والشيوعية بل سيكون بين الدول الفقيرة والدول الغنية، بصرف النظر عن العقيدة السياسية.

ما الذي تعنيه هذه الخارطة الدولية الجديدة بالنسبة لنا، كدولة عربية نامية صغيرة؟

أولا: تعني ان السياسة الدولية اليوم أعقد منها بكثير أيام الحرب الباردة عندما كان ما يرضي أحد المعسكرين يغضب المعسكر الآخر.. والعكس الصحيح. من

الـمـمـكـن اليوم إرضاء المعسكر ين معاً أو اغضابهما معاً. وهذا التعقيد يتطلب المز يد من اليقظة والمز يد من الرو ية.

ثـانـيـاً: ان زوال حـدةالخلافات السياسية التقليدية جعل للاعتبارات الاقتصادية دوراً يـفـوق بـكـثير دورها قبل ثلا ثين عاماً ومن هنا فان بامكاننا أن نمارس تأثيراً يفوق حـجـم قـوتنا العسكر ية، غير اننا يجب أن نمارس هذا التأثير بحذر شديد ودون أن ننسى حجمنا الحقيقي.

ثـالـثـا: ان عـلينا أن نفرق بوضوح بين العناصر الثابتة والعناصر المتغيرة في الموقف الـدولي فلا نجمد على سياسة واحدة بحجة ان الموقف لم يتغير، ولا نغير سياستنا كل يوم في محاولة لمجاراة التطورات اليومية المتغيرة. مثل هذه السياسة المتوازنة تتطلب الكثير من الحكمـة واذا كـانـت الحكمـة مطلوبة في كل وقت فهي مطلوبة الى درجة أكبر في هذا العصر الذري ذي المتغيرات السر يعة.



فهرست

إصدارات إدارة النشر بتهامة

الكتاب العربي السعودي

صدر منهـا :

الكتاب		المؤلف
* الجبل الذي صار سهلاً		المرحوم الأستاذ أحمد قنديل
* من ذكريات مسافر		الأستاذ محمد عمر توفيق
* عهد الصبا في البادية		ترجمة الأستاذ عزيز ضياء
* التنمية قضية		دكتور محمود محمد سفر
* قراءة جديدة لسياسة محمد علي باشا		دكتور سليمان محمد الغنام
* الظمأ	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عبد الله جفري
* الدوامة	(قصة طويلة)	دكتور عصام خوقير
* غداً أنسى	(قصة طويلة)	دكتورة أمل محمد شطا
* موضوعات اقتصادية معاصرة		دكتور علي بن طلال الجهني
* ازمة الطاقة إلى أين ؟		دكتور عبد العزيز حسين الصويغ
* نحو تربية إسلامية		الأستاذ أحمد محمد جمال
* إلى ابنتي شيرين		المرحوم الأستاذ حمزة شحاتة
* رفات عقل		المرحوم الأستاذ حمزة شحاتة
* شرح قصيدة البردة	(دراسة وتحقيق)	دكتور محمود حسن زيني
* عواطف انسانية	(ديوان شعر)	دكتورة مريم البغدادي
* تاريخ عمارة المسجد الحرام		المرحوم الشيخ حسين باسلامة
* وقفـــة		دكتور عبد الله حسين باسلامة
* خالتي كدرجان	(مجموعة قصصية)	الأستاذ أحمد السباعي
* أفكار بلا زمن		الأستاذ عبد الله الحصين
* علم إدارة الأفراد		الأستاذ عبد الوهاب عبد الواسع
* الابحار في ليل الشجن	(ديوان شعر)	الأستاذ محمد الفهد العيسى
* طه حسين والشيخان		الأستاذ محمد عمر توفيق
* التنمية وجهاً لوجه		دكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
* الحضارة تحدٍّ		دكتور محمود محمد سفر

* عبير الذكريات	(ديوان شعر)	الأستاذ طاهر زمخشري
* لحظة ضعف		الأستاذ فؤاد صادق مفتي
* الرجولة عماد الحق الفاضل		المرحوم الأستاذ حمزة شحاتة
* ثمرات قلم		الأستاذ محمد حسين زيدان
* بائع التبغ		الأستاذ حمزة بوقري
* أعلام الحجاز في القرن الرابع عشر للهجرة		الأستاذ محمد علي مغربي
* النجم الفريد		ترجمة الأستاذ عزيز ضياء
* مكانك تحمدي		الأستاذ أحمد محمد جمال
* قال وقلت		الأستاذ أحمد السباعي
* نبض ..		الأستاذ عبد الله جفري
* نبت الأرض		الدكتورة فاتنة أمين شاكر
* الأمثال الشعبية في مدن الحجاز		الأستاذ أحمد السباعي
* أفكار تربوية		دكتور ابراهيم عباس نتو
* عن هذا وذاك		دكتور غازي عبد الرحمن القصيبي
* نقر العصافير	(ديوان شعر)	المرحوم الأستاذ أحمد قنديل

تحت الطبع :

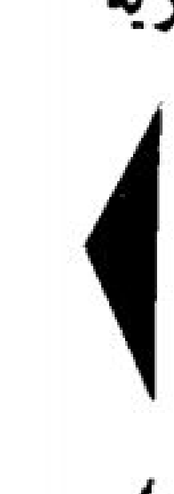
* السعد وعد	(مسرحية)	الدكتور عصام خوقير
* قصص من سومرست موم	(مجموعة قصص عالمية)	ترجمة الأستاذ عزيز ضياء
* تأملات في دروب الحق والباطل		الشيخ عبد الله عبد الغني خياط
* خدعتني بحبها	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عبد الله بوقس
* قصص من طاغور		ترجمة الأستاذ عزيز ضياء
* السنيورا	(قصة طويلة)	الدكتور عصام خوقير
* أيـامي ..		الأستاذ أحمد السباعي
* قضايا .. ومشكلات لغوية		الأستاذ أحمد عبد الغفور عطار
* التاريخ العربي وبدايته		الأستاذ أمين مدني
* ماما زبيدة	(مجموعة قصصية)	الأستاذ عزيز ضياء
* مدارسنا والتربية		الأستاذ عبد الوهاب أحمد عبد الواسع

* دوائر في دفتر الزمن (مجموعة قصصية) الأستاذ سباعي عثمان
* جسور إلى القمة الأستاذ عزيز ضياء
* هكذا علمني وردزورث الأستاذ أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري
* عام ١٩٨٤ لجورج أورويل ترجمة الأستاذ عزيز ضياء
* مشواري مع الكلمة الأستاذ حسن عبد الحي قزاز
* وجيز النقد عند العرب الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
* لن تلحد الأستاذ أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري
* خواطر جريئة معالي الاستاذ حسن عبد الله آل الشيخ
* تاريخ الكعبة المعظمة وعمارتها فضيلة الشيخ حسين باسلامة
* رسائل إلى ابن بطوطة (ديوان شعر) الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
* الإسلام في نظر أعلام الغرب الشيخ حسين باسلامة
* فلسفة المجانين الأستاذ سعد البواردي
* الأصداف (ديوان شعر) المرحوم الأستاذ أحمد قنديل

الكتاب الجامعي

صدر منها :

* الإدارة : دراسة تحليلية للوظائف والقرارات الإدارية دكتور مدني عبد القادر علاقي
* الجراحة المتقدمة في سرطان الرأس والعنق (باللغة الانجليزية) الدكتور فؤاد زهران، الدكتور عدنان جمجوم، الدكتور محمد عيد



* النمو من الطفولة إلى المراهقة دكتور محمد جميل منصور، دكتور فاروق سيد عبد السلام
* الحضارة الإسلامية في صقلية وجنوب إيطاليا دكتور عبد المنعم رسلان
* النفط العربي وصناعة تكريره دكتور أحمد رمضان شقلية
* علاقة الاباء بالأبناء (دراسة فقهية) دكتورة سعاد ابراهيم صالح

* مبادىء القانون لرجال الأعمال — دكتور محمد ابراهيم أبو العينين
* الاتجاهات العددية والنوعية للوروايات السعودية — الأستاذ هاشم عبده هاشم
* الملامح الجغرافية لدروب الحجيج — الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
* مشكلات الطفولة — دكتور محمد جميل منصور

تحت الطبع :

* هندسة النظام الكوني في القرآن — دكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر
* الدولة العثمانية وغربي الجزيرة العربية — الأستاذ نبيل عبد الحي
* النظرية النسبية — دكتور عبد الرحمن فكري
دكتور محمد عبد الهادي كامل

* الأدب المقارن
(دراسة في العلاقة بين الأدب العربي والآداب الأوروبية) — دكتور عبد الوهاب علي الحكمي
* شعراء التروبادور — دكتورة مريم البغدادي
* الفكر التربوي في رعاية الموهوبين — الدكتور لطفي بركات أحمد



صدر منها :

* حارس الفندق القديم — الأستاذ صالح إبراهيم
* دراسة نقدية لفكر زكي مبارك (باللغة الانجليزية) — دكتور محمود الشهابي
* التخلف الإملائي — الأستاذة نوال قاضي
* ملخص خطة التنمية الثالثة
للمملكة العربية السعودية (باللغة العربية)

* ملخص خطة التنمية الثالثة
للمملكة العربية السعودية (باللغة الانجليزية)

* تســـالي (شعر شعبي) — دكتور حسن يوسف نصيف
* مجلة الأحكام الشرعية (دراسة وتحقيق) — للمرحوم الشيخ أحمد بن عبد الله القاري
د. عبد الوهاب ابراهيم أبو سليمان
د. محمد ابراهيم أحمد علي
* النفس الإنسانية في القرآن — الأستاذ ابراهيم سرسيق

تحت الطبع :

* الرياضة عند العرب في الجاهلية وصدر الإسلام — الأستاذ محمد أمين ساعاتي
* خطوط وكلمات (رسوم كاريكاتورية) — الأستاذ علي الخرجي
* القرآن .. ودنيا الإنسان — الأستاذ صلاح البكري
* الوحدة الموضوعية في سورة يوسف — دكتور حسن محمد باجودة
* الأسر القرشية .. أعيان مكة المحمية — الأستاذ أبو هشام عبد الله عباس بن صديق
* الاستراتيجية النفطية ودول الأوبك — الأستاذ أحمد محمد طاشكندي
* ألــوان — الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
* عطر وموسيقى — الأستاذ محمد اسماعيل جوهرجي
* أضواء على نظام الأسرة في الإسلام — دكتورة سعاد ابراهيم صالح
* وللخوف عيون (مجموعة قصصية) — الأستاذ أحمد شريف الرفاعي
* سوانح وخطرات — الأستاذ أحمد محمد طاشكندي
* الحجاز واليمن في العصر الأيوبي — دكتور جميل حرب محمود حسين
* نقاد من الغرب — الأستاذ عبد الله عبد الوهاب العباسي
* ماذا تعرف عن الأمراض — دكتور اسماعيل الهلباوي
* جهاز الكلية الصناعية — دكتور عبد الوهاب عبد الرحمن مظهر

رسائل جامعية

تحت الطبع :

* العثمانيون والإمام القاسم بن علي في اليمن — الأستاذة أميرة علي المداح
* القصة في أدب الجاحظ — الأستاذ عبد الله أحمد باقازي
* الخراسانيون ودورهم السياسي — الأستاذة ثريا حافظ عرفة

* تاريخ عمارة الحرم المكي الشريف — الأستاذة فوزية حسين مطر
* نظام الحسبة في العراق .. حتى عصر المأمون — الأستاذ رشاد عباس معتوق
* افتراءات فليب حتّى، وبروكلمان على التاريخ الإسلامي — الأستاذ عبد الكريم علي باز

كتاب الناشئين

وطني الحبيب

صدر منها :

جدة القديمة — الأستاذ محمد يعقوب إسحاق

تحت الطبع :

جدة الحديثة

حكايات للأطفال — الأستاذ عزيز ضياء

قصص للأطفال — الأستاذة فريدة فارسي

كتاب للأطفال

لكل حيوان قصة — للاستاذ يعقوب اسحاق

صدر منها :

- القرد ..
- الضب
- الثعلب
- الكلب
- الغراب
- الأرنب
- السلحفاة
- الجمل
- الذئب
- الأسد
- البغل
- الفأر ..
- الحمار الأهلي
- الفراشة
- الخروف
- الفرس
- الدجاج
- البط
- الغزال

* الحمار الوحشي
* الببغاء
* الوعل
* الجاموس
* الحمامة

كتب صدرت باللغة الانجليزية

English Books Published By Tihama

- Tihama Economic Directory.
- Riyadh Citiguide.
- Banking and Investment in Saudi Arabia.
- A Guide to Hotels in Saudi Arabia.
- Surgery of Advanced Cancer of Head and Neck.

  By F.M. Zahran
  A.M.R. Jamjoom
  M.D. EED

- Zaki Mubarak: A Critical Study.

  By Dr. Mahmud Al Shihabi

- Summary of Saudi Arabian
  Third Five year Development Plan


مطابع النصر
شركة ذات مسؤولية محدودة
جدة . المملكة العربية السعودية